فيودور دوستويفسكي

الليالي البيضاء

ترجمة سامي الدروبي

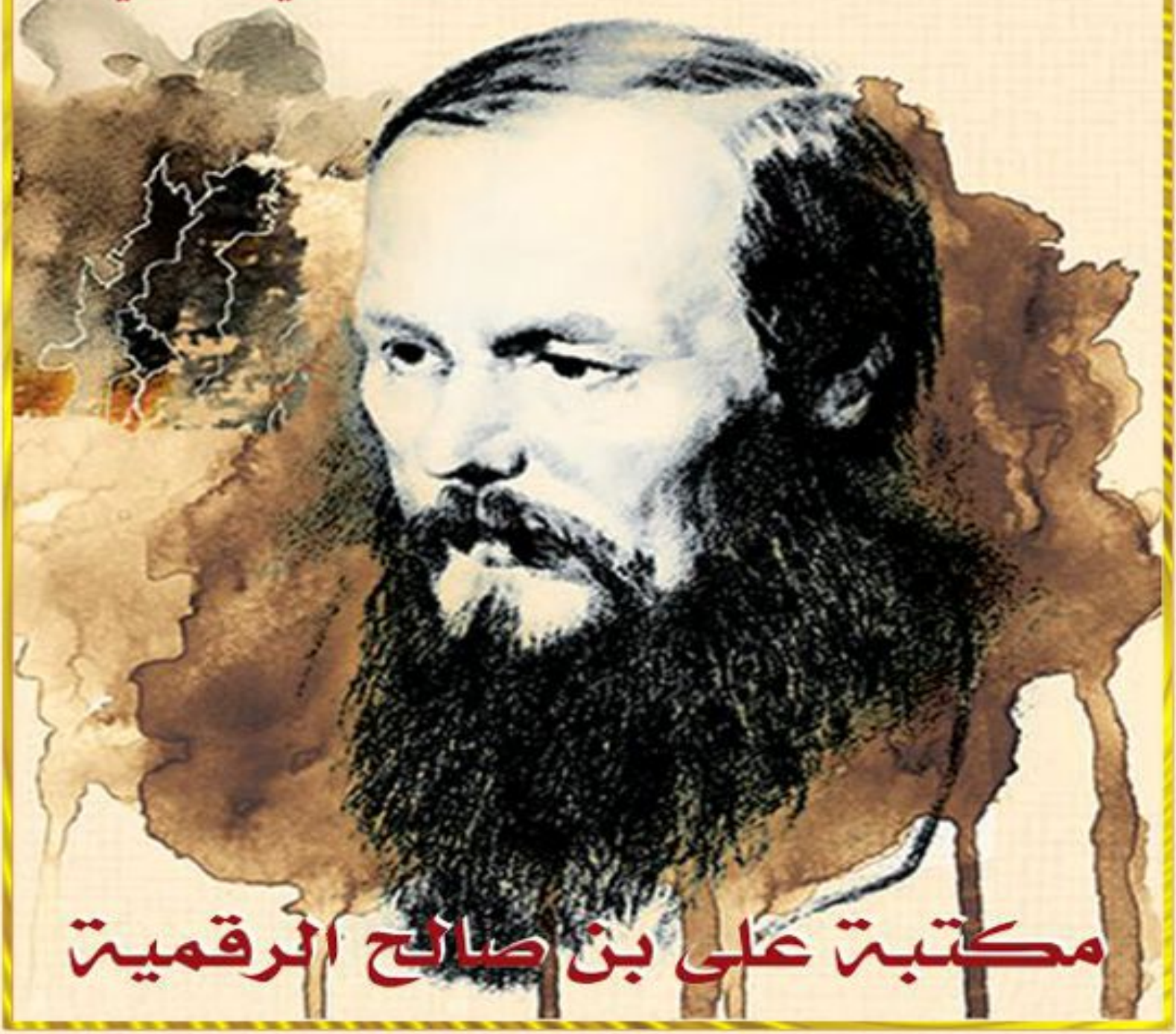

مكتبة علي بن صالح الرقمية

فيودور دوستويفسكي

الليالي البيضاء

روايــة قصيرة

ترجمة سامي الدروبي

1848

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

«الليالي البيضاء» كتبت سنة ١٨٤٧، ونشرت في مجلة «حوليات الوطن»، في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٤٨.

الليلة الأولى

كانت الليلة جميلة، جميلة جمالًا لا نراه الا حين نكون في ريعان الشباب أيها القراء الأحبة! السماء تتلألأ فيها النجوم، وهي تبلغ من الصفاء أن المرء يتساءل بالرغم منه حين ينظر اليها: «هل يمكن تحت مثل هذه السماء أن يعيش أناس يملأ قلوبهم البغض وتعبث بنفوسهم النزوات؟» السؤال ساذج، ساذج جدًا، أيها القراء الأحبة! ولكنني أسأل الله العلي القدير أن يبعثه في أنفسكم أحيانا كثيرة!.. انني حين أحدثكم عن البشر اللذين تعبث بنفوسهم النزوات ويملأ قلوبهم البغض أتذكر سلوكي خلال ذلك اليوم كله. كانت نفسي تمتلئ حزنًا منذ ذلك الصباح، وكان يخيل إلي أن العالم كله يهجرني، وأن الناس جميعا يهربون مني.

من حقكم أن تسألوني طبعًا: ولكن من هم «هؤلاء الناس؟». ذلك أن ثماني سنين انقضت على إقامتي بمدينة بطرسبرج ثم لم أستطع أن أعقد مع أحد أواصر صداقة. ولكن فيم كان يمكن أن ينفعني الأصدقاء؟ انني أعرف بطرسبرج كلها. لذلك خيل إلي أن الناس جميعًا هجروني لأن المدينة كلها سافرت إلى الريف. انه ليشق على نفسي كثيراً أن أبقى وحيداً. وهأنذا منذ ثلاثة أيام، أطوف في المدينة هائمًا على وجهي لا أفهم ماذا يجري في نفسي. أجتاز شارع نفسكي، أو اذهب إلى حديقة الصيف، أو اتنزه على الارصفة [1]، فلا أرى هنا ولا هناك أي وجه من وجوه أولئك الذين ألفت أن ألقاهم طوال السنة، في مواضع معينة وساعات محددة.

صحيح أنني في نظرهم غريب. ولكني أعرفهم أنا جميعًا. لا شيء فيهم يفوتني. درست هيئاتهم. كنت أعجب بهم حين أراهم مرحين، وأتألم حين أبصر انهم حزانى. ولقد انعقدت صلة بيني وبين شيخ قصير القامة كنت ألقاه في ساعة بعينها من جميع الأيام على نهر فونتانكا. في وجهه تعالٍ وكبر، وفي عينيه أحلام. وهو يدمدم دائما في لحيته، محركا ذراعه اليسرى، بينما تمسك يده اليمنى بعصا ذات قبضة من ذهب. لقد لاحظني هذا الرجل، وهو يهتم بحالتي النفسية. فاذا لم أكن في ساعة معينة في موضع معين من قناة فونتانكا أحزنه ذلك فيما أعتقد[2]. لذلك يحيي أحدنا الآخر أو يكاد يحييه، لا سيما حين نكون كلانا في مزاج صاف رائق. فإذا اتفق أن انقضى يومان دون أن يرى أحدنا صاحبه ثم التقينا في اليوم الثالث ارتفعت يدانا إلى قبعتينا عفوًا، ولكن كلا منا ما يليث أن يثوب إلى رشده فيمر بصاحبه على بشاشة متبادلة.

والمنازل صديقة لي أيضا. فحين أسير فكأن كل منزل من هذه المنازل يقبل علي وينظر إلي من جميع نوافذه ويقول لي: «نعمت يومًا! كيف حالك؟ أنا بخير والحمد لله. في شهر آذار سيضاف إلي طابق جديد» أو يقول لي: «كيف صحتك؟ أما أنا فسيصلحونني غدًا» أو يقول لي أيضا: «لقد أوشكت أن أحترق وخفت خوفًا شديدًا». الخ. الخ.. وبين هذه المنازل منازل أوثرها، فكأنها من رفاقي، فمنها واحد ينوي أن يعالج هذا الصيف لدى معمار، فأنا أتعمد أن أمر به في كل يوم حتى لا يسرفوا في افساده، وأسأل الله أن يحرسه وأن يصونه!.. ولن أنسى ما حييت قصة ذلك البيت الجميل الصغير الوردي اللون! لقد كان من حجر، وكان أنيقًا لطيفة، وكان يرمقني دائمة بنظرة محبة ويبلغ من الادلال والزهو بالنظر إلى جيرانه أن قلبي كان يبتهج ابتهاجا كبيرًا

كلما رأيته في نزهه من نزهاتي. فلما اجتزت الشارع في الأسبوع الأخير نظرت إلى صديقي الصغير فسمعته يئن قائلا: «سيصبغونني بلون أزرق»! يا للبرابرة الهمج المتوحشين! إنهم لا يشفقون على شيء ولا تأخذهم بشيء رحمة أو رأفة: لا الأعمدة ولا الأفاريز! وأصبح صديقي أصفر كطائر الكناري. ثارت ثائرتي وكدت أصاب بنوية عصبية، وما زلت إلى الآن أشعر بأني لا أستطيع النظر مرة أخرى إلى صديقي الصغير الذي شوهوه تشويها كاملا وصبغوه بألوان امبراطورية السماء[3].

لقد أصبحتم الآن لا تجهلون أيها القراء كيف أعرف بطرسبرج!

سبق أن قلت أن قلقاً قد عذبني خلال ثلاثة أيام إلى أن عرفت سببه. كنت أشعر في الشارع بغربة (هذا غائب، وذاك مسافر، وأين الآخر؟) وفي بيتي أيضا أصبحت أنكر نفسي. تساءلت خلال سهرتين كاملتين: «ما الذي ينقصني في غرفتي الصغيرة؟ لماذا أشعر بوحشة هنا؟» وأمضى أنظر حائراً في الجدران الخضراء التي غشيها الدخان، وفي السقف المغطى بأنسجة العنكبوت التي كانت ماتريونا تنجح في الحفاظ عليها أيما نجاح، وأعيد النظر إلى جميع الأثاث، فأدقق في كل كرسي من الكراسي علني أجد السبب فيما أشعر به من ضيق (ذلك أن قطعة من الأثاث تجعلني مريضاً إذا هي لم تكن في مكانها). ونظرت من النافذة فلم أظفر بطائل.. لم تتحسن حالي. حتى لقد أردت أن أنادي ماتريونا، فاستدعيتها ولمتها على انها لم تطهر السقف من انسجة العنكبوت، وآخذت عليها اهمالها عامة: ولكن عينيها أظهرتا دهشة ثم خرجت دون أن تنطق بكلمة، وظل نسيج العنكبوت على حاله من الصحة والعافية حيث كان. ولم احزر السبب الا اليوم في اخر الامر. لقد «فلوا» جميعا إلى الريف. اغفروا إلى هذه الكلمة العامية، ولكنني لست الان من صفاء المزاج بحيث أجيد تخير

الألفاظ وانتقاء العبارات. ان بطرسبرج كلها قد سافرت إلى الضواحي. وما من رجل مهيب المنظر وقور الطلعة أراه ينادي حوذيا في الشارع الا وأتصوره رب أسرة يسافر ليستريح في الريف مع ذويه بعد سنة قاسية من عمل قاس، وما من عابر سبيل الا ونظرته تقول: «لن نمكث هنا يا سادتي الا برهة قصيرة، وبعد ساعتين سنكون في منزلنا الريفي». وهذه نافذة تفتح، وهذه أصابع صغيرة دقيقة ناعمة بيضاء كالسكر تضرب الزجاج ضربات خفيفة، وهذا وجه نضير هو وجه فتاة تظهر من النافذة فتنادي بائع الأزهار فيبدو لي أن هذه الازهار انما تشتري لتذهب فورا إلى الريف وتختفي، لا لتعطر مسكنًا في المدينة أو لتهب للأعين فرحة الربيع.

ولقد بلغت من التقدم في هذا النوع من الاكتشافات، أنني كنت أستطيع أن أعرف بنظرة واحدة أي بيت ريفي يسكنه أي واحد من هؤلاء المسافرين. ان الأسر التي تقيم في جزر كامني وآبتكارسكي وفي طريق بترهوف تتميز بما تتعمده من حركات أنيقة وآداب رفيعة وبما تملكه من ملابس غنية للصيف وعربات فخمة رائعة. وان سكان بارجولوفو وسكان القرى المجاورة يلفتون النظر بفخامة منظرهم وذكاء هيئاتهم[4]. ولا كذلك سكان جزيرة كريسكوفسكي فإنهم أهل فرح ومرح لا ينطفئان.

فإذا التقيت بموكب طويل من المسافرين يتقدمون بخطى بطيئة ممسكين أدلتهم بأيديهم قرب عرباتهم الملأى بالأثاث والموائد والكراسي والأرائك التركية وغير ذلك، وفوقها طباخة نحيلة تحافظ على رزق مولاها محافظتها على بؤبؤ عينيها، أو اذا رأيت قوارب تجري على نهر نيفا أو نهر فونتانكا ملأى كذلك بأنواع الأمتعة – تكاثر ذلك كله في عيني وتضخم مسافرا إلى الريف مواكب مواكب. ان بطرسبرج كلها

تهدد بأن تصبح صحراء مقفرة. لذلك كنت أشعر بحزن وقلق يملكان عليّ نفسي. كنت لا أعرف أين أذهب. وما كان ثمة داع يهيب بي الى السفر. كنت أتمنى أن أتبع كل عربة من العربات، وأن أجري وراء كل مسافر من المسافرين، ولكن ما من أحد يدعوني فقد نسوني، وكانت غريب عنهم جميعًا!

لبثت أسير زمنا طويلا هائما على وجهي لا أعرف الشوارع التي أقطعها، فإذا أنا أجد نفسي آخر الأمر في ظاهر المدينة. اجتزت حدود المدينة وقطعت الحقول والسهول لا أصغي إلى التعب؛ ولكنني شعرت بأن حملًا ثقيلا قد سقط عن كتفي، وشعرت براحة تشيع في نفسي وفرح يترقرق في قلبي. المسافرون ينظرون إليّ نظرة محبة ومودة، حتى لكأنهم يحيونني. في وجوههم يلوح الرضى والسرور وهم جميعًا يدخنون السيكار. كنت أنا أيضا سعيدا كما لم أكن كذلك في يوم من الأيام. حتى لقد حسبتني في ايطاليا، فإلى هذه الدرجة كانت الطبيعة جميلة. ان الطبيعة لتملؤني الآن بشراً واعجابا أنا الساكن المسكين من س كان المنازل الخانقة في المدينة.

ان ثمة شيئا لا يمكن تحديده أو وصفه، شيئًا يؤثر في النفس أبلغ تأثير في طبيعة بطرسبرج لحظة تفجّر كل قوتها عند اقتراب الربيع، فاذا سماؤها تتلألأ جمالا، واذا أزهارها تسطع بكل ما لها من سناء.. إن طبيعة بطرسبرج تذكرك عندئذ بعذراء مريضة تنظر اليها أحيانا نظرة اشفاق، وتنظر اليها أحيانا نظرة حب، عذراء قد لا تلتفت اليها في ساعات أخرى ولكنها تبلغ على حين فجأة من الجمال أنك تتساءل وقد جننت اعجابا وافتتانا: «أية قوة تحمل هاتين العينين الحزينتين الحالمتين على الاحتراق بنارٍ كهذه النار؟ ما الذي نادى الدمع إلى هذين الخدين

الخاسفين الناحلين الشاحبين؟ أية عاطفة نهّدَت هذا الصدر، وأي هوي جمل القسمات الدقيقة من هذا الوجه؟ ما الذي دعا القوة والحياة والحسن فجأة إلى وجنتي هذه الفتاة المسكينة؟ ما الذي أضاء هذا الثغر بمثل هذه البسمة؟ ما الذي حرك الفم بمثل هذه الضحكة الرنانة المشرقة؟» وتنظر أنت حولها باحثا عن أحد فتحزر وتقدر!. ولكن اللحظة تنقضي. ولعلك سترى في الغداة تلك النظرة الزائغة نفسها، وذلك الوجه الشاحب نفسه، وآثار حزن قاتل يبكي هوى عارضا... ويحزنك ان غاب ذلك الحسن الوامض إلى الأبد، ويحز في نفسك أن الوقت لم يتسع حتى لأن تحبها...

وكان ليلي أجمل من نهاري واليكم ما حدث لي:

رجعت إلى المدينة في ساعة متأخرة، وحين قاربت أن أصل إلى بيتي كانت الساعة قد دقت العاشرة. كنت أسير على رصيف القناة الذي لا يلقى المرء عليه أحدة في مثل هذه الساعة. انني أقيم في حي بعيد من المدينة. وكنت أسير وأنا أغني كما يتفق لي ذلك حين أكون سعيداً. وتلك عادة مشتركة بين جميع المعتزلة الذين ليس لهم أصدقاء ثم يخطر لهم أن يفصحوا عن فرحهم! واني لكذلك إذا بطارئ لم يكن بالحسبان يمنعني من العودة إلى مسكني.

لقد أبصرت امرأة متكئة بكوعها على افريز الجسر. كان يبدو عليها أنها تنعم النظر في ماء القناة العكر. ان على رأسها قبعة صفراء صغيرة جميلة، وهي ترتدي خمارا أسود أنيقا. قلت لنفسي: هذه فتاة، ولا شك أنها سمراء. لم تسمع وقع خطواتي وأنا اقترب منها، ولا تحركت قط حين مررت بها حابساً أنفاسي. شعرت بقلبي يخفق خفقانا قويا. قلت لنفسي: «غريب! لا بد انها غارقة في تفكير عميق» ثم لم ألبث أن توقفت فجأة، كأنني تسمرت في مكاني: لقد سمعت نشيجاً مكتوماً، بكاء مخنوقاً.

نعم لم يكذبني سمعي! لقد كانت الفتاة تبكي! رباه! ما أشد ما انقبض صدري، صحيح أنني خجول مع النساء، ولكن اللحظة كانت تقضي... عدت أدراجي متجها نحوها وكدت أن أخاطبها هاتفا: «يا مدموازيل» لولا أني تذكرت أن هذا الهتاف قد كتب آلاف المرات في جميع الروايات الروسية التي يقرؤها أبناء المجتمع الراقي. ذلك هو السبب الوحيد الذي منعني من مخاطبتها هاتفا بها «يا مدموازيل». ولكن، فيما كنت أبحث عن الكلمة المناسبة التي أخاطبها بها، ثابت هي إلى رشدها، فانتصبت، ونظرت حولها، ثم اندفعت تجتاز رصيف النهر، فتبعتها فورا، ولكنها حزرت أني أتبعها فتركت رصيف النهر، واجتازت أحد الشوارع، ومضت تسير على رصيفه. لم أجرؤ بعد ذلك أن أتبعها، فقد أخذ قلبي يخفق خفقان قلب عصفور سجين. غير أن ظرفا لم يكن في الحسبان قد خدمني في هذه اللحظة.

فعلى الجهة الأخرى من الرصيف ظهر فجأة، غير بعيد من فتاتي المجهولة، رجل مسن قليلا يرتدي رداء فراك. كانت مشيته غير ثابتة، فهو يترنح متسنداً على الحائط. والفتاة تمشي مسرعة تغذ الخطى ككل الفتيات اللواتي يرفضن سلفا أية دعوة إلى اصطحابهن. وما كان لهذا السيد الذي لا يزال يترنح في مشيته أن يدركها، لولا أن قدري قد أوحى اليه أن يعمد إلى وسائل متعمدة، فها هو ذا يسرع الخطو دون أن يقول كلمة واحدة، ويركض وراء الفتاة المجهولة. كانت الفتاة تسير مسرعة كالريح، ولكن السيد الذي كان يمشي مشية سكران أصبح يزداد اقترابا منها شيئا بعد شيء حتى أدركها فأمسك بها فاذا هي تصرخ... بورك في القدر الذي جعلني في تلك اللحظة حاملا عصاي الرائعة في يدي اليمنى، فما هي الا وثبة واحدة حتى كنت في الجهة الاخرى من الرصيف.

وسرعان ما فهم الرجل من ذا الذي يتصدى له، فلم يلبث أن أذعن لحجتي التي لا سبيل إلى مقاومتها، وانسحب دون أن يقول كلمة واحدة. وكنا قد ابتعدنا أنا والفتاة حين سمعنا تهديدات قوية. ولكن أقواله أصبحت لا تبلغ سمعنا.

قلت للفتاة:

– ناوليني يدك فلا يجرؤ بعد ذلك على أن يقترب.

فلما مدت إليّ يدها صامتة شعرت بها ترتعش انفعالا وذعرا. ما أكثر ما باركت ذلك الرجل في تلك اللحظة! وألقيت نظرة سريعة على رفيقتي. انها جميلة سمراء. لقد حزرت ذلك. وكانت دموع صغيرة لا تزال تتلألأ على أهدابها الطويلة السوداء. أهو حزن؟ أهو خوف؟ لا أدري... ولكن بسمة قد أخذت تنير وجهها منذ الآن! وألقت عليّ نظرة مختلسة هي أيضا، فاحمرت قليلا ولزمت الصمت.

قلت لها:

– لماذا صددتني؟ لو كنت معك لما وقع الذي وقع.

– ولكنني لم أكن أعرفك، فقدرت أنك أنت أيضا...

– والآن هل تعرفين من أنا؟

– قليلا!. ولكن لماذا ترتجف؟

– اذن لقد أدركت دفعة واحدة!

كذلك صحت فرحا. لقد سحرني أن أرى أنها ذكية. وذلك أمر لم يفسد جمالها. وتابعتُ أقول:

– نعم لقد أدركتِ فورا أي رجل أنا! نعم انني خجول مع النساء. وأنا الآن مضطرب الحواس كاضطرابك أنت منذ لحظة حين أخافك ذلك الرجل... ان الرعب قد استبد بي حتى ليخيل إليّ أني أحلم! بل انني في أحلامي نفسها لم يدر في خلدي يوما أني سأخاطب امرأة.

– كيف؟ أهذا صحيح؟

– نعم! واذا ارتجفت يدي فلأنها لم تمسك في يوم من الأيام يداً لطيفة كيدك. لقد هجرت معاشرة النساء هجرا تاما! أعني أنني لم أعاشرهن يوما، فأنا أعيش وحدي... حتى أنني لا أعرف كيف أكلمك، وما زلت إلى هذه اللحظة نفسها لا أعرف ذلك. ألم أرتكب في حديثي حماقة من الحماقات؟ أجيبيني بصراحة فلست سريع التأذي.

– لا.. لا.. بالعكس.. وإذا شئت أن أصدقك القول اعترفت لك بأن هذا الخجل يعجب النساء! وإذا أحببت أن تعرف المزيد فاعلم أن هذا الخجل يعجبني أنا كثيرا. فأرجوك أن تصحبني الى النهاية.

– ولكنك ستجعلينني أفقد كل خجل فأفقد بذلك جميع ما أملك من مزايا.

قلت ذلك وأنا ألهث سعادة.

قالت:

– مزايا؟ أية مزايا؟ لماذا؟ ذلك وحده نذير سوء.

– معذرة! كان الأمر أقوى مني! وكيف أستطيع في لحظة كهذه ألا أتمنى أن أنال..

– الاعجاب؟ اليس كذلك؟

– طبعا! أرجو أن تترفقي بي! احكمي في الأمر بنفسك. لقد بلغت من العمر ستة وعشرين عاما ولم ار في حياتي احدا، فأنّى لي ان اجيد الكلام بحذق ولباقة. ولسوف يحسن حالك أنت نفسك حين أتخلص من بعض هذا الخجل... لا أستطيع أن أسكت حين يتكلم قلبي... لا ضير على كل حال... صدقي أو لا تصدقي... الحقيقة أني لم أعرف امرأة في حياتي قط، ولم تنعقد بيني وبين أحد صداقة حتى الآن، وأملي في كل يوم أن ألتقي أخيرا بإنسان! ليتك تعلمين كم مرة تولهت حبا على هذا النحو.

– ولكن كيف هذا؟ وبمن تولهت؟

– لم أتوله بأحد! وانما تولهت بالمثل الأعلى الذي أراه في أحلامي. أنا أخلق في أحلامي روايات بأسرها! إنك لا تعرفيني! صحيح أنني التقيت بامرأتين أو ثلاث، فليس يستطيع المرء أن يعيش بدون ذلك... ولكن من كانت هاته النسوة! خادمات بيوت... سوف أضحكك قليلا، فأعترف لك بأنني أردت عدت مرات أن أشرع في حديث رقيق في الشارع مع امرأة ارستقراطية. كانت عندئذ وحدها طبعا، فاقتربت منها بخجل واحترام وعاطفة قوية.

قلت لها انني أموت في عزلتي وسألتها ألا تصدني لأني لا أملك الوسائل اللازمة لامتلاك امرأة. برهنت لها على أن من واجبها أن تستجيب لرجاء رجل بائس كبؤسي. ولقد أفهمتها على كل حال أن كل ما أطلبه منها هو أن تخاطبني بكلمتين، ببضع كلمات أخوية، أن تهتم بمصيري، أن تثق بكلامي وألا تستخف بي (اذا حلا لها ذلك) إلا بعد أن تهب لي شيئا من أمل. كنت أرغب في كلمتين منها، كلمتين فحسب، ثم نستطيع بعد

ذلك أن نفترق إلى الأبد!... أراك تضحكين!... على كل حال، ذلك كان هدفي من سرد هذه القصة.

– لا تزعل: أنا أضحك لأنك عدو نفسك، ولو قد حاولت مغامرة ما فلربما أصبت نجاحا... ما من امرأة طيبة (اذا لم تكن حمقاء أو معتكرة المزاج) الا وكان يمكن أن تهب لك تينك الكلمتين الأخويتين اللتين ترغب فيهما تلك الرغبة القوية كلها... ولكن ماذا أقول! لا شك أنها كانت ستحسبك مجنونا. ولقد حكمتُ على الأمر الآن على أساس تفكيري أنا. لست أجهل كيف يعيش الرجال.

صحت أقول:

◉ شكرا.. شكرا.. إنك لا تعرفين ما صنعته في سيلي بهذه الاقوال. لقد أحسنت إليّ كثيرا...

– طيب! ولكن كيف عرفت أني امرأة... جديرة... بالاهتمام والصداقة... لماذا تعرضت لي؟

– لماذا؟ لأنك كنت وحدك. وقد أسرف الرجل في التجرؤ عليك، والوقت ليل، ألم يكن من واجبي أن أتدخل؟

– لا، لا... قبل ذلك... على الجسر.. أردت أن تكلمني.. أليس كذلك؟

– على الجسر؟ الحق أني لا أعرف كيف أجيبك... انني خائف... لقد كنت اليوم سعيدا... كنت أغني وأنا أسير... طوفت خارج المدينة. لم أعش في حياتي لحظات سعيدة كل هذه السعادة. وظهرت لي... ولكن اعذريني إذا ذكّرتك... لقد ترامى لي أنك كنت تبكين، ولم أستطع أن

أحتمل ما سمعت من نشيجك... انقبض صدري... قلت لنفسي: رباه! ألا أستطيع أن أقاسمها حزنها؟ أكان خطيئة مني أن أشعر نحوك بعطف أخوي... اغفري لي استعمالي كلمة «العطف». ولكن قولي لي هل كان يسوءك حقا أن أقترب منك في تلك اللحظة؟

– اسكت... كف عن الكلام...

قالت ذلك وهي تضغط يدي ضغطا قويا.

وتابعت تقول:

– أنا المخطئة في التحدث عن هذه الأمور. ولكن يسرني أني لم أخطئ في حكمي عليك... على كل حال هأنذا قد وصلت. سوف أنعطف في هذا الممر، فلا يبقى بيني وبين مسكني الا ثلاث خطوات.. الى اللقاء وأشكرك.

– اذن لن نلتقي بعد الآن قط؟ هل انتهى بنا الأمر هنا؟

قالت وهي تضحك:

– لم تكن تريد الا كلمتين، والآن... ثم اننا قد نلتقي.

قلت:

– سآتي إلى هنا غدا. معذرة... هأنذا أملي مطالب منذ الآن..

– نعم أنت قليل الصبر تكاد تصدر أوامر..

قاطعتها أقول:

– اسمعي... معذرة إذا قلت لك أيضا هذا.. لا أستطيع الا أن آتي إلى هنا غدا. أنا امرؤ حالم يبلغ حظي من الحياة الواقعية من القلة والضآلة

أني لابد لي أن أعيش مرة أخرى في أحلامي اللحظات السعيدة التي تشبه هذه اللحظة. سأحلم بك طوال الليل، الاسبوع كله، السنة بأسرها. أعود فأقول لك انني آت إلى هنا غدا، إلى هذا المكان، هذا المكان بعينه؛ وسأكون سعيدا بأنني سأحيا الساعة الراهنة مرة أخرى. هذه الأماكن عزيزة في نفسي. ان لي في بطرسبرج مكانين أو ثلاثة من هذا النوع. لقد حدث لي مرة أن بكيت لذكرى، كما حدث لك منذ برهة... لعل دموعك كانت تسيل أيضا بسبب ذكرى... ولكن معذرة... ما زلت أمضي بعيدا. لعلك كنت سعيدة هنا في يوم من الأيام!

قالت الفتاة:

– لك ما تريد! سآتي إلى هنا غدا في الساعة العاشرة، كاليوم! هأنت ذا ترى أني لا أستطيع أن أمنع عنك هذا.. ولكن لا بد لي أن أكون في هذا المكان! فلا يذهبن بك الظن إلى أنني أضرب لك موعداً.. ها قد أبلغتك.. ان عليّ أن أكون في هذا المكان لشأن من شئوني أنا. على أنني أعترف لك صراحة بأنني لن أضيق بحضورك. فقد تحدث مزعجات كما حدث اليوم. ولكن كفانا كلاما عن هذا. الخلاصة أني سأحب أن أراك. ولكن حذار أن تحكم عليّ حكما قاسيا، حذار أن تتخيل أني أضرب مواعيد بمثل هذه السهولة... ما كان لي أن أطلب اليك المجيء لولا أن... ولكن دع هذا سراً لي!

– بل تكلمي! قولي لي السر! قوليه فورا! أنني أوافق على كل شيء! أنا مسؤول عن نفسي، وسأكون طيّعا، وسأكون في غاية الأدب والاحترام.. أنت تعرفينني.

كذلك صحت فرحا فأجابت وهي تبتسم:

– لأنني أعرفك انما أدعوك إلى المجيء غدا! أنا أعرفك حق المعرفة. ولكن حذار!.. تعال بشرط.. بشرط عليك أن تتذكره دائما وأن يكون مائلا في ذهنك كل لحظة! اياك ثم إياك أن تحبني.. ذلك لا يمكن أن يكون، أؤكد لك. أنا أنشد الصداقة! فإليك يدي ولكن لا حب! لا حب!

هتفت أقول وأنا أمسك يدها:

– يمينا لأتقيدن بهذا.

– دعك من اليمين! أنا أعرف أن من الممكن أن تشتعل كالبارود. لا تسئ الظن فيّ إذا أنا قلت لك هذا الكلام. ليتك تعلم!... أنا أيضا ليس لي أحد أكلمه بقلب مفتوح، وليس لي أحد أسأله نصحا؛ ولا أستطيع أن أخاطب انسانا في الشارع. أنت استثناء! يخيل إليّ أنني أعرفك كما لو كنا صديقين منذ عشرين عاما... إنك لن تخونني قط.. أليس كذلك؟

– سوف ترين!.. ولكنني لا أعرف كيف سأعيش هذا اليوم!

– نم جيدا! سعدت ليلتك. وتذكر أنك نلت ثقتي منذ الآن! وكما قلت أنت نفسك: ليس علينا أن نحلل عواطفنا حتى ولا عواطف المحبة الأخوية! لقد عرفت كيف تخاطبني فسرعان ما خطر ببالي أن أثق بك وأن أفضي اليك بما في نفسي.

– ولكن ما الذي تريدين أن تبوحي لي به؟ قولي أرجوك...

– إلى الغد، وليق هذا سرا الآن. وذلك أفضل لك، حتى يكون أشبه برواية. قد أقص عليك كل شيء غدا، وقد لا أفعل! سنتحدث بادئ الأمر... وسنصبح صديقين حميمين أكثر من الآن...

– نعم سأقص عليك حياتي كلها! ولكن ما هذا؟ ان معجزة تتحقق في نفسي... قولي: ألست نادمة على أنك لم تصديني منذ البداية كما كان يمكن أن تفعل النساء الأخريات؟ لقد جعلتني سعيدا بلحظة من حديث: نعم جعلتني سعيدا. صالحتني مع نفسي... بددت شكوكي.. على كل حال سأقول لك كل شيء غدا... ستعرفين كل شيء.. كل شيء...

– اتفقنا.. ستبدأ أنت...

– موافق!

– إلى اللقاء!

– إلى اللقاء!

وافترقنا. ظللت الليل كله أطوف في أرجاء المدينة! لم أستطع أن أعود إلى مسكني! كنت سعيدا غاية السعادة! إلى الغد!

الليلة الثانية

قالت لي ضاحكة وهي تشد على كلتا يدي:

– هه... هل عشت يومك؟

– أنا هنا منذ ساعتين. هل تعرفين كيف قضيت هذا اليوم؟

– أعرف، أعرف... ولكن فلنتكلم في أمور جدية. لماذا جئت إلى هنا؟ انني لم أجيء لأقول سفاسف وترهات كما فعلت أمس. يجب علينا أن نتصرف تصرفا أذكى. لقد فكرت في هذا كله!

– في أي شيء يجب أن نكون أذكى؟ على أنني مستعد.. ولكن الحقيقة هي أنني لم يقع لي في حياتي أمر أذكى من لقائنا.

– حقا؟ أرجوك أولًا أن لا تضغط يدي كل هذا الضغط، وأعلن لك ثانيا أني فكرت فيك كثيرا أول الأمر...

– وماذا قررت؟

– ماذا قررت؟ قررت أن علينا أن نعود إلى البداية، أن نستأنف كل شيء من أوله، لأنني لا أعرفك قط. لقد تصرفت أمس كطفلة، كبنية صغيرة. طبعا... الذنب ذنب قلبي الطيب... لقد مدحت نفسي كما نفعل دائما حين نصدر رأيا في أنفسنا. لذلك سأصلح خطيئتي بأن أسألك عن أدق تفاصيل حياتك، لأني لا أستطيع أن أسأل أحدا عنك، فقص عليّ اذن كل شيء بدون أي تكتم. أي رجل أنت؟ قصّ عليّ تاريخك! أسرع.

صحت مذعورا:

– تاريخي! ولكن من قال لك أن لي تاريخا! أنا ليس لي أي تاريخ.

قاطعتني ضاحكة تقول:

– كيف عشت اذاً لم يكن لك تاريخ؟

– عشت دون أي تاريخ! عشت.. هكذا.. ببساطة.. وحدي دائما.. هل تفهمين؟ عشت وحيدا.

– عشت وحيدا؟ كيف هذا؟ ألم تر انسانا قط؟

– بلى! إني أرى كثيرا من الناس ولكنني أظل وحيدا.

– كيف هذا؟ ألست تكلم اذن أحدا؟

– هذه هي الحقيقة خالصة. لست أكلم أحدا.

– ولكن من أنت اذن؟ اسمع! لقد حزرت.. لعل لك جدة مثلي أنا؟ انها عمياء، ولا تسمح لي بالخروج أبدا، لذلك فقدت عادة الكلام فقدانا تاما. ولما ارتكبت منذ سنتين بعض الحماقات أدركتُ أنها لن تستطيع أن تحبسني عن الخروج، فنادتني وربطتني إلى ثوبها بدبوس. هذا نعيش معا أيامنا كلها: هي تنسج جواربها رغم أنها عمياء، وأنا أجلس إلى جانبها أقرأ لها أو أخيط. عادة غريبة، أليس كذلك؟ نحن مشدودتان احدانا إلى الأخرى بدبوس منذ سنتين...

– رباه! ما هذا الشقاء!.. لا.. ليس لي جدة كهذه الجدة.

– فكيف تستطيع اذن أن تمكث في بيتك؟

– أراك تصرين على أن تعرفي من أنا!

– نعم.. نعم..

– بأدق معاني هذه الكلمة؟

– بأدق معانيها.

– لك ما تريدين! فاعلمي إذن أنني مخلوق غريب.

– مخلوق غريب؟

كذلك صاحت الفتاة وهي تنفجر ضاحكة بقهقهة مجنونة، وتابعت تقول:

– حقا أن المرء لا يشعر معك بملل. اسمع! هذا مقعد فلنجلس عليه. ما من أحد يجيء الى هنا، ما من أحد سيسمع كلامنا. ابدأ سرد حكايتك.. انني مقتنعة أن لك حكاية! لا تخفها عني؟ اشرح لي أولا ماذا تعنيه بقولك «مخلوق غريب».

مخلوق غريب؟ المخلوق الغريب انسان شاذ، انسان.. مضحك.

كذلك أجبت وأنا أضحك اذ سمعتها تضحك، وتابعت أقول:

– المخلوق الغريب طبع خاص... مزاج حالم... هل تعلمين ما هو الانسان الحالم؟

– الانسان الحالم؟ كيف لا أعرفه؟ أنا نفسي أحلم دائما. حين أقضي أيامي كلها جالسة قرب جدتي... رباه! ما أكثر ما يدور في نفسي حينذاك! أحلام لا نهاية لها: أتزوج أميرا صينيا مثلا... انه ليسعد المرء كثيرا في بعض اللحظات أن يسترسل في الأحلام.

وأضافت تقول برزانة ورصانة:

– على كل حال، من يدري؟ لا بد أن يفكر المرء في أمور جدية أيضًا.

– حسنا لسوف تفهميني أيضا ما دمت تخيلت أنك تتزوجين امبراطور الصين. فاسمعي اذن.. ولكن... معذرة لم أعرف اسمك إلى الآن!

– هه! الآن تفطن إلى ذلك

– لم يخطر ببالي هذا الأمر. كنا على خير حال هكذا...

– يسمونني ناستنكا.

– ناستنكا؟ أهذا كل اسمك؟

– ألا يكفيك هذا أيها الرجل الذي لا يشبع؟

– بالعكس انه ليسعدني أن يكون اسمك عندي ناستنكا فقط.

– طيب.. طيب هأنذا أصغي إلى حديثك الآن.

جلست قربها متجمعا على نفسي، وأخذت أقص عليها كمن يقرأ قراءة:

– ان في بطرسبرج يا ناستنكا أركانا غريبة جدا. الشمس التي تسطع لجميع سكان المدينة لا تنفذ إلى تلك الأماكن، وانما تسطع في تلك الأركان شمس أخرى ذات ضياء خاص كأنه خلق لهذه الزوايا التائهة وحدها دون غيرها. البشر يحيون في هذه الزوايا حياة لا تشبه الحياة التي تغلي وتفور حولنا مختلفة غريبة بعيدة. هذه الحياة مزيج من صفاء رائع خيالي مثالي ومن اسفاف تافه وابتذال رخيص.

– الله الله!... يا لها من مقدمة! ما عساني سامعة أيضا؟

– ستسمعين يا ناستنكا.. (آه ما أسعدني اذ أناديك بهذا الاسم!) ستسمعين أن هذه الأحياء يسكنها بشر يثيرون العجب والدهشة. انهم الحالمون. والحالم إذا أردتُ أن أعرِّفه لك ليس انسانا بل مخلوق... لا تحديد له... انه يؤثر الزوايا التي لا يمكن بلوغها والوصول اليها، كأنه يهرب من ضوء النهار، مثله كمثل تلك الحيوانات الغريبة – السلاحف – التي تحمل بيوتها معها. ترى لماذا يحبون كل هذا الحب جدرانهم الصغيرة الأربعة المدهونة دائما بلون أخضر، التي يشيع فيها الحزن ويملؤها الدخان بغير انقطاع؟ ترى لماذا حين يجيء إلى أحدهم صديق (لاحظي أنه يفعل كل ما يحسن أن يفعله على خير وجه حتى يغيب عنه جميع الاصدقاء اخر الامر)، ترى لماذا حين يجيء هذا الصديق يهب ذلك الانسان الشاذ إلى استقباله خجولا كل الخجل وقد تغير وجهه كل ذلك التغير، حتى لكأنه قارن بين جدرانه الأربعة الصغيرة جرمًا، كأنه صنع أوراقا نقدية مزيفة، أو نظم أبياتا من الشعر صغيرة ليرسلها إلى مجلة مع رسالة لا يذكر فيها اسمه قائلا ان ناظم هذا الشعر صديق له قد مات وانه يرى أن من واجبه المقدس أن ينشر انتاجه. ولماذا يا ناستنكا يخمد الحديث بين هذين الصديقين؟ لماذا يضوي ويهن، فلا ضحكة، ولا كلمة جريئة، ولا اشارة إلى الجنس اللطيف؟ لماذا يصبح الصديق نفسه (وهو لن يعود قط ولن يكون له خلف) لماذا يصبح الصديق نفسه مضطربا كل ذلك الاضطراب؟ لماذا يفقد كل حس سليم (اذا كان له منه شيء) حين يلاحظ كيف تشعث وجه رب البيت الذي فقد صوابه هو أيضا فقدانا كاملا. ان رب البيت يحاول عبثا أن يظهر علمه بآداب المجتمع وأن يبعث في الحديث شيئا من الحياة بالكلام على النساء، وأن يسلي صديقه الذي

جاء يزوره خطأً. ولماذا يتناول هذا الصديق أخيرا قبعته ويهرع نحو الباب متذكرا على حين فجأة مهمة عاجلة لا وجود لها في الواقع؟ وفجأة يتحرر من العناق الحار، عناق صاحبه الذي يجهد أن يعبر عن أسفه وأن يصلح ما أفسده فتوره؟ لماذا ينفجر الصديق ضاحكا وراء الباب قاطعا على نفسه عهدا أن لا يضع قدميه بعد اليوم في بيت هذا الانسان الشاذ الذي هو رجل طيب شهم على كل حال. انه يقارن في ذكراه بين وضع هذا المسكين صاحب البيت وبين وضع قطة ضربها الأطفال فهربت مذعورة إلى الظلام تحت المائدة، وظلت ساعة بكاملها تسترد عافيتها شيئا فشيئا وتغسل فمها الجريح بقائمتيها الصغيرتين، وتظل تنظر بعد ذلك نظرة عداء إلى كل شيء وحتى إلى الخادمة التي تأتيها بطعامها.

قاطعتني ناستنكا تقول وعيناها تعبران عن الدهشة:

– اسمع! إنني لا أفهم قط كيف يمكن أن يكون هذا الذي تقصه قد وقع فعلا. ولماذا تلقي عليّ أسئلة غريبة كل هذه الغرابة؟ ولكنني أعلم أن هذه المغامرات كلها هي مغامراتك.

أجبتها في جد قائلا:

– بدون أدنى شك.

قالت ناستنكا:

– أكمل اذن، فإنني أحب أن أعرف كيف سينتهي هذا كله.

قلت:

– إنك تحبين أن تعرفي حياة بطلنا أو بالأحرى حياتي، لأن بطل قصتنا هذه هو أنا، هو شخصي المتواضع الصغير. تريدين أن تعرفي لماذا

اضطربت هذا الاضطراب كله من زيارة صديقي التي لم أكن أتوقعها، لماذا انتفضت مذعورا واحمر وجهي احمرارا شديدا حين فُتح باب غرفتي، لماذا أنا عاجز عن استقبال ضيف؟

أجابت ناستنكا:

– نعم.. نعم.. اسمع! إنك تجيد رواية قصتك اجادة رائعة ولكن أليس في وسعك أن تتكلم بلغة أبسط من هذه اللغة وعبارات أبسط من هذه العبارات؟ انه ليخيل إلى أنك تقرأ في كتاب.

أجبتها بصوت رصين وقور محاولا أن لا أضحك:

– ناستنكا! أنا أعرف أنني أجيد الحديث، ولكنني أستميحك عذرا، فإنني لا أستطيع أن أقص بغير هذه الطريقة. أنا أشبه الآن روح الملك سليمان التي يقال أن أختامها السبعة قد فضت عنه بعد أن ظلت حبسة سبعة آلاف عام. لقد التقينا يا ناستنكا بعد فراق طويل...ذلك أني أعرفك منذ زمن طويل جدا. أنا أبحث عن أحد منذ سنين. أنا أبحث عنك أنت منذ سنين. ولقد كُتب علينا أن نلتقي، فإذا ألوف العواطف التي ما تزال مكبوتة قد تفجرت في نفسي. وهأنذا أدع لأمواج من الكلام أن تطفح وتفيض حتى لا أختنق. لذلك لا تقاطعيني يا ناستنكا والا اضطررت أن أسكت.

– تكلم اذن تكلم! فلن أنطق بحرف واحد.

– هأنذا أتابع اذن. هناك ساعة من ساعات اليوم أحبها كثيرا: هي الساعة التي تنتهي فيها جميع الواجبات والأعمال فيهرع الناس إلى منازلهم للعشاء، ويستلقون نشدانًا للراحة. هذه الساعة في الساعة التي يفكر فيها الناس كيف يقضون السهرة بل الليلة مرحين. أن بطلنا أيضا

(اسمحي لي أن أتحدث عن نفسي بصيغة الغائب) أن بطلنا الذي قضى النهار كله في العمل، يتبع الآخرين في عودتهم إلى منازلهم، ولكن شعورا غريبا باللذة يلاحظ عندئذ على وجهه المتعب الشاحب. وانه ينظر الى الغسق الذي يهبط على سماء بطرسبرج الباردة، ينظر إلى هذا النسق لا نظرة من لا يبالي، حتى اني لأكذب حين أقول أنه ينظر، فانما هو يتأمل تأملا، ربما على غير شعور منه، كانسان متعب تستغرقه أفكار أخرى، موضوعات أقرب إلى اهتمامه والصق بأشواقه. فهو لذلك لا يولى كل ما يحيط به الا انتباها قليلا. هو سعيد بأنه فرغ إلى الغد من أعماله الحزينة، مرح مرح التلميذ يخرج من المدرسة للعب والمتعة. لاحظيه يا ناستنكا تجدي فورا أن عاطفة الفرح التي يشعر بها قد أثرت في أعصابه المريضة وخياله المحموم. انظري! لعله يفكر.. هل تظنين أنه يفكر في العشاء؟ في السهرة التي تنتظره؟ إلى من هو ينظر هكذا؟ أهو ينظر الى ذلك السيد الوقور الذي حيّا سيدة في عربتها تحية احترام؟ لا يا ناستنكا أنه لا يحفل بهذه التفاصيل! أنه غني بحياته الداخلية النفسية. وأشعة الشمس الغاربة لم تتلألأ عبثا أمامه، بل غمرت روحه بطائفة من المشاعر الجديدة. أصبح لا يلاحظ الطريق الذي كانت تفاصيله اليسيرة تفتنه قبل ذلك. ان «الهة الأحلام» (هل قرأت جوكوفسكي يا عزيزتي ناستنكا) تنشر أمام بصره منذ تلك اللحظة النسيج الذهبي والصور الرائعة والتهاويل الفاتنة من حياة خيالية ساحرة لا يمكن تصورها. ومن يدري؟ لعل الهة الأحلام قد نقلته إلى السماء السابعة البلورية، ولعلها تسير به على رصيف من رائق المرمر! حاولي أن تستوقفيه وأن تسأليه فجأة: «إلى أين أنت ذاهب وأي شارع قطعت؟». انه لن يستطيع أن يجيبك، وسيحمر خجلا، ثم يلفق لك كذبة انقاذا للمظاهر. من أجل ذلك انما ارتعش وكاد يصرخ ونظر حواليه مذعورا حين استوقفته تلك المرأة

العجوز القصيرة الطيبة تسأله عن طريقها الذي ضلته. لقد قطب حاجبيه وتابع طريقه دون أن يلاحظ المارة الذين ابتسموا ودمدموا بكلام لم يسمعه. وهذه بنية صغيرة قد اضطرت أن تتنحى لتفسح له مجالا، فاذا هي تنفجر في قهقهة صاخبة حين نظرت بكلتا عينيها إلى ابتسامته العريضة واشاراته البليغة. ولكن «الهة الأحلام»[5] تلك تصطاد في شباكها المرأة العجوز أيضا والمارة المستغربين والبنية التي تضحك وحتى أولئك الرجال الذين يلتهمون طعامهم على قاربهم في نهر فونتانكا. هؤلاء جميعا يحيون في هذا الحلم الذي اختطفتهم إليه والهة الأحلام، كما يختطف العنكبوت الذباب إلى نسيجه. هؤلاء جميعا يحيون في ذلك الحلم الذي يحلمه صديقنا حين يعود الى غرفته الصغيرة فرحًا، فيجلس إلى مائدته، ويتعشى، ولا يثوب إلى نفسه الا حين تحمل اليه ماتريونا غليونه، فهو يستيقظ عندئذ ويتذكر مدهوشا أنه تناول عشاءه لا يدري كيف! الظلام يخيم في غرفته ونفسه حزينة مقفرة. مملكة الأحلام قد تهاوت حواليه بلا ضوضاء ولا صخب ولم تترك أثرا! لقد هربت هروب طيف! حتى أن بطلنا لا يتذكر أنه حلم. ولكن عاطفة مبهمة تعود فتهز قلبه، ورغبة أخرى تدغدغ خياله لذيذة ممتعة، ثم سرعان ما تهيجه، وتخلق له عالما جديدا من الاشباح شيئا بعد شيء. الصمت يرين على الغرفة؛ والعزلة والكسل يهدهدان فكره الذي يصعد ويغلي غليانها خفيفا كالماء في غلاية القهوة التي تصنع فيها العجوز ماتريونا قهوتها في المطبخ. والكتاب الذي تناوله صاحبنا الحالم بغير هدف وعلى غير هدى يسقط من بين يده قبل أن يتم قراءة الصفحة الثالثة منه. لقد اهتاج خياله من جديد. وهذا عالم رائع يظهر له في صور مثالية. وهذه حياة حافلة بالمباهج تخطر أمامه أشكالا أخاذة، حلما آخر، سعادة جديدة! وها هو ذا يمتص مزيدا من الامتصاص سم اللذة المرهفة. ماله ولحياتنا الواقعية! نحن لا نحيا الا

قليلا جدا! نحن لا نحيا الا بطيئا جدا! نحن لا نحيا الا حياة رتيبة جدا. ونحن نندب حظنا كل يوم غير راضين عنه. انظري من حولك: ألا ترين كل شيء في الواقع برودة وغضبا وقسوة؟... «يا لهم من بؤساء» كذلك يقول الحالم لنفسه. ولماذا لا يقوله لنفسه؟ ان صورا جميلة بعينها تخطر أمامه، وان أطيافا رائعة تداعب خياله على متعة ونشوة، فيرى بطلنا نفسه شخصية أولى في الصف الأول. تصوري جميع تلك المغامرات المتنوعة. تصوري هذه السلسلة التي لا نهاية لها من الأحلام الحارة. ولكن لعلك تسألينني عن موضوع أحلامه... هو رسالة الشاعر، المغمور في أول الأمر، المتوج بإكليل المجد بعد ذلك.. هو صداقته مع هوفمان[6]، هو ليلة سان بارتلمي، هو ديان فرنون، هو السلوك البطولي الذي أظهره ايفان فانسيليفتش عند الاستيلاء على قازان، هو كلارا مونبراي، هو ايفي دينز، هو أحبار المجمع البابوي وأمامهم هوس، هو يقظة الموتى في «روبير الشيطان» (ألا تذكرين هذه الموسيقى التي تفوح منها رائحة المقابر؟) هو مينا وبراندا، هو معركة بيريزينا، هو قراءة قصيدة عند الكونتيسة ف.. د.. هو دانتون، هو كليوباترا وغرامها، هو بيت كولومنا الصغير، هو ركن صغير تجلس إلى جانبه فيه مخلوقة حبيبة تصغي الى كلامه في أمسية من أمسيات الشتاء فاغرة فاها، محملقة بعينيها الصغيرتين – كما تصغين اليّ الآن يا ملاكي الغالي.. لا يا ناستنكا ما شأن هذا الانسان الواني بهذه الحياة التي نجنح اليها كلانا؟ انه مقتنع بأن هذه الحياة صغيرة مسكينة عامية مبتذلة. وهو لا يقول لنفسه أن ساعة قد تجيء فاذا هو يفرحه ان يبيع جميع هذه السنين التي قضاها في الاحلام بيوم من تلك الحياة. ولا تحسبي أنه سيختار اليوم الذي هو أسعد الأيام في هذه الساعة التي يعاني فيها الندامة والالم، ولكنه في هذه اللحظة، بينما هو يحلم، لا يرغب في شيء، لأنه فوق الرغبات، لأن أحلامه

تشبع جميع حاجاته، وتروي كل ظمئه. انه صانع حياته، وهو في كل لحظة يخلق حياته على ما يريد له هواه! وما أسهل ما يولد هذا العالم الخيالي الاسطوري طبيعيا من تلقاء نفسه، حتى لكأن الأمر ليس أمر أشباح! فان صاحبنا الحالم مؤهب حتى للاعتقاد بأن هذه الحياة ليست أكذوبة من أكاذيب الخيال، ولا خطأ من أخطاء الحواس، بل هي الواقع الحق القائم! والا فلماذا يا ناستنكا تتسارع نبضات قلبه وتتدفق الدموع من عينيه وتحترق خداه الشاحبتان؟ لماذا يمتلئ كيانه كله بفرح لا يوصف، ولماذا تذوب ليالي بأسرها من الأرق في لحظة سعادة لا سبيل إلى التعبير عنها؟ حين تطلع أشعة الفجر الشاحبة فتنسل من النوافذ وتنير الغرفة الصغيرة الحزينة التي يقطنها صاحبنا الحالم بضياء مبهم لا يحدد، فانه يرتمي على سريره متعبا مهدود القوى، وينام باكيا من الفرح مهتاج الروح اهتياجا يشبه أن يكون مرضا. نعم يا ناستنكا، قد يخطئ المرء عندئذ فيحسب أن هوى حقا يضطرم في روحه، وأن الواقع قائم في أحلامه المجنونة. خطأ ذلك! هكذا يكون الحب قد نفذ إلى قلبه بفرحه الذي لا ينضب، وآلامه الحادة الكاوية... ولكن انظري إليه! هل تحسبين أنه لم يعرف أبدا تلك التي يحبها في أحلامه! ألم ير حقا تلك المرأة إلا طيفًا فاتنًا، ولم يزد على أن عانى هواه في الأحلام! من يدري؟ لعلهما قد عاشا كلاهما سنى عمرهما يدا بيد، بعيدين عن العالم، موحدين حياتيهما إلى الأبد. هل يمكن أن لا تكون هي التي، في أواخر الليل، لحظة الفراق، قد رقدت ناحية يائسة على حضنه لا تسمع العاصفة الهوجاء تحت السماء المشئومة، ولا تسمع الريح التي تنتزع الدموع من أهدابها السوداء وتطير بها في الفضاء؟ ألم تكن الا حلما تلك الحديقة الحزينة المتوحشة المنعزلة التي كثيرا ما عاشا فيها اعتكافهما في الأمل واليأس والحب الحنون الخالد، وذلك المنزل العريق القديم الغريب الموروث عن الأجداد

الذي عاشت فيه زمنا طويلا مع زوجها الشيخ الكالح المتجهم الصامت المبغض الذي يلاحقهما هما الخجولين كطفلين في حبهما الصامت المتخفي! ما أكثر ما كانت تنزل عليهما الآلام! وما أكثر ما كانا يمتلئان خوفا وقلقا! ما أكثر ما كان حبهما بريئا صافيًا! وما أكثر ما كان الناس (بطبيعة الحال يا ناستنكا) أشرارا في معاملتهما! ويا رب، أليست هي التي التقى بها بعد ذلك بعيدة عن وطنها في سماء أجنبية جنوبية حارقة، في «المدينة الخالدة» الرائعة ابان حفلة راقصة ساطعة وسط أصوات الموسيقى (موسيقي البالازو طبعا) الغارقة في خضم من نيران، على الشرفة التي تتعانق فيها فروع الآس وأزهار الورد، فلما عرفته أسرعت تنضو عن وجهها القناع، مدمدمة أنا حرة، وهي ترتجف وتنتحب وترتمي في ذراعيه، فاذا هما في صرخة من الحماسة وقد احتضن كل منهما الآخر، ينسيان ما قاسياه من ألم وما عاناه من عذاب الفراق وصروف الأيام، وينسيان المنزل القاسي والشيخ والحديقة القائمة في الوطن البعيد، والمقعد الذي كانا جالسين عليه في آخر يوم حين انتزعت نفسها من عناقه في قبلة محمومة وقد تشنجت من فرط الألم... أواه يا عزيزتي ناستنكا! اعترفي بأن المرء قد يطير صوابه ويضطرب ويحمر كتلميذ كان يدس في جيبه تفاحة سرقها من بستان مجاور، حين يكون على هذه الحال فاذا بفتى فارع القامة ممتلئ بالعافية مرح المزاج جريء الطبع ذرب اللسان حلو الحديث، هو صديقه، يفتح بابه بدون سابق دعوة ويهتف صائحا كأن شيئا لم يكن: «هأنذا يا عزيزي وصلت الآن من بافلوفسك!» يا رب! الكونت الشيخ مات، وهذه هي السعادة جاءت أخيرا، السعادة التي لا تغلب، فاذا الناس يصلون في تلك اللحظة من بافلوفسك!

سكتُّ بنوع من التفخم بعد أن فرغت من أقوالي الملأى فخفخة وانتفاخا. واني لأذكر أن قد قامت في نفسي رغبة رهيبة في أن أضحك ضحكة مجنونة طويلة لأنني شعرت شعورا قويا بوجود شيطان عدو يتحرك في أعماقي بينما أخذ حلقي ينقبض وأخذت ذقني ترتعش وأخذت عيناي تخضل.. كنت آمل من ناستنكا التي كانت تصغي اليّ محملقة بعينيها الذكيتين أن تضحك ضحكتها الفنية المرحة، وكنت قد أخذت منذ ذلك الحين أندم على أنني أسرفت في الكلام وأطنبت في قص ما كان يغلي في نفسي. كنت قد أدنت منذ زمن طويل حياة الاحلام هذه التي أحياها ولم أكن آمل أن أُفهم الآن حين فتحت قلبي. ولكن ما كان أشد دهشتي حين رأيت ناستنكا بعد أن لبثت صامتة بضع لحظات تشد على يدي خجلى وتسألني:

– أحقا عشت هذه الحياة؟

فأجبتها:

– دائما يا ناستنكا. وأحسب أني سأموت هكذا.

قالت قلقة:

– لا! هذا مستحيل! هذا لن يكون.. وهل أظل أعيش أنا أيضا قرب جدتي الى الأبد؟ هل تعلم أن الحياة على هذا المنوال ضارة مؤذية؟

صحت أقول وقد أصبحت لا أملك ضبط فكري:

– نعم يا ناستنكا. أعرف ذلك. ولقد أصبحت لا أجهل أنني ضيعت أحسن سني عمري. واني لأتألم من هذا اليقين، لا سيما الآن بعد أن أرسلك الله إلي، يا ملاكي الطيب من أجل أن تعلميني هذا وأن تبرهني

لي عليه. واني اذ أحدثك ليبدو لي غريبا أن أفكر في المستقبل الذي يمثل العزلة والوحدة ويمثل تلك الحياة الباطلة نفسها. وما عسى أن يكون موضوع أحلامي بعد اليوم وقد عشت واقع السعادة بالقرب منك؟ بورك فيك أيتها الفتاة العزيزة. لأنك لم تصديني ولأنك أتحت لي أن أقول أنني عشت في حياتي أمسيتين.

صاحت ناستنكا تقول والدموع تتلألأ في عينيها:

– لا، لا، هذا لن يكون! لن ننفصل هكذا! ما أمسيتان؟

– آه يا ناستنكا، ناستنكا.. ليتك تعلمين كم صالحتني مع نفسي. لن أحكم على نفسي بعد الآن حكما يبلغ مبلغ سوء حكمي عليها من قبل. لن أظن أنني ارتكبت خطيئة، انني ارتكبت جريمة في حياتي، لأن هذه الحياة جريمة. ولا تحسبي أنني أبالغ ناشدتك الله! لا تحسبي هذا يا ناستنكا، فإنني أعاني حقا لحظات رهيبة من الحزن، واني لأقتنع حينذاك أنه يستحيل عليّ أن أبدأ حياة حقيقية. لقد فقدت كل معرفة بالواقع، فقدت كل شعور بالواقع؛ وان ساعات اليقظة التي أعيشها بعد ليال خيالية لهي رهيبة الوقع في نفسي. وأنا في أثناء ذلك، أرى جمهرة البشر تدور في اعصار الحياة من حولي، اعصار الحياة الواقعية التي لا تذهب بدد كحلم، الحياة التي تتجدد تجددا متصلا وتبقى فتية ريانة الفتوة. ولا كذلك أحلامي التي تبقى هي هي حزينة عادية أسيرة لظلمة الفكر، لاول غمامة تحجب الشمس فتحزن قلوب أهل بطرسبرج الذين يحبون الضياء هذا الحب كله. أن هذه الأحلام لتسأم وتنضب وتنتشر غبارا، فاذا لم تجيء حياة جديدة تغذيها فمن هذا الغبار انما ستعود وتنشأ حياة التهاويل والأخيلة. والنفس ترغب أثناء ذلك في شيء آخر ولكن الحالم يبحث عبثًا في أحلامه القديمة، كمن يبحث في الرماد عن شرارة يمكن أن تعيد

الحركة إلى قلبه الذي جلدّه الصقيع ويمكن أن تبث الحياة مرة أخرى في كل ما كان حبيب إلى قلبه، وحنانا وجمالا في نظره، وما كان يستدر دموع عينيه ويفتنه عن نفسه تلك الفتنة الساحرة. هل تعلمين يا ناستنكا أنني اضطررت للاحتفال بأعياد سنوية لعواطفي، لما عبدته دائما ولم يوجد في الواقع قط. ذلك أن هذه الاحتفالات السنوية تذكرني بتلك الأحلام الغبية الباطلة التي اختفت هي نفسها. الأحلام تتبدد أيضا، أليس كذلك؟ هل تعلمين أنني أحب تذكر الأماكن التي كنت فيها سعيدا، وأن أعود فأراها؟ انني أحب أن أعيش الحاضر من خلال ذكرى الماضي، وكثيرا ما أهيم على وجهي حزينا بلا هدف أقصد اليه في شوارع بطرسبرج ودروبها – وما أكثر ما هنالك من ذكريات في كل مكان! – فأتذكر أنني منذ سنة تماما، في هذه الساعة عينها، كنت أسير على هذا الرصيف عينه منهوك القوى مهدود الروح كالآن؛ وكانت أحلامي حداداً، ولم تكن حياتي أقرب إلى الفرح كثيرا، ولكن يخيل إليّ أنني كنت أحيا حياة أجمل من حياتي الآن، وأن الأفكار السود لم تكن تسكن دماغي قوية عنيفة كما تسكن فيه الآن، وانني لم أكن أعاني من هذه الندامات وآلام الضمير التي لا تدع لي اليوم راحة. واني لأسائل نفسي: أين أحلامك كلها اذن؟ ولشد ما تجري السنون سريعة سريعة! أحسن ما في حياتك مات. ءأنت قد حيت حقا؟ انظر كيف صار كل ما حواليك جليدا من الصقيع، وستنقضي سنون أخرى وستظل تعيش هذه العزلة الرهيبة ثم تدب فيك الشيخوخة العاجزة. عالمك الخيالي ستحول ألوانه، وأحلامك الكثيرة ستسقط سقوط الأوراق الصفر عن أشجارها في الشتاء... آه يا ناستنكا ما أبأس أن يبقى المرء وحيدا، وحيدا كل الوحدة. وما أبأس ألا يكون له ما يتحسر على انقضائه... لأن كل ما فقده انما كان عدما باطلا، صفرا غبيا، حلما عابرا.

دمدمت ناستنكا تقول وهي تكفكف دمعها:

– كفى! لا تحزني مزيدا من الحزن. انتهى الأمر الآن. وسنكون بعد اليوم اثنين. ولن نفترق مهما يحدث لي. اسمع! أنا فتاة بسيطة على حظ ضئيل من الثقافة، رغم أن جدتي قد سمّت لي أستاذا. ولكني أفهمك لأنني عشت بنفسي كل ما قصصته عليّ الآن. صحيح أنني ما كنت لأستطيع أن أقصه هذا القص الجميل (كذلك أضافت تقول خجلى) لكنني شعرت بهذا كله حين ربطتني جدتي إلى ثوبها بدبوس، ويسعدني أنك أفضت إليّ بذات نفسك. أنا أعرفك الآن، أعرفك حق المعرفة، وأريد أن أحكي لك حكايتي دون أن أخفي عنك شيئا. وسوف تسدي اليّ بالنصح بعدئذ. أليس كذلك؟ ألا تعدني بهذا النصح يا من أنت على هذا الجانب العظيم من الذكاء؟

أجبتها أقول:

– آه يا ناستنكا، ما أسديت في حياتي بنصيحة لأحد، فليس لي اذن تجربة، ولكنني أعلم أننا اذا عشنا بعد اليوم معا فسنكون قادرين على أن ينصح كل منا الآخر كما لا يستطيع أحد أن ينصحه. أما بعد يا ناستنكا اللطيفة، فأية نصيحة تريدين؟ كلميني بصراحة، انني فرح. انني سعيد. انني مرتاح البال مطمئن النفس. وهأنذا أصغي اليك وسأحدثك بغير اكراه.

قاطعتني ناستنكا ضاحكة تقول:

– لا، لا، أنا لا أريد نصيحة ذكية فحسب بل أريد نصيحة صديق نصيحة أخ، كأنك قد أحببتني طوال حياتك!

صحت أقول مفتونا:

– موافق يا ناستنكا، موافق، ولو كنت قد أحببتك منذ عشرين عاما لما كان حبي أقوى منه الآن.

وقالت ناستنكا:

– هات يدك.

فأجبتها وأنا أمد اليها يدي:

– اليك يدي.

قالت:

– الآن أبدأ قصتي.

قصة ناستنكا

– لقد علمت نصف قصتي اذ علمت أن لي جدة عجوزا..

قاطعتها أقول:

– اذا كان النصف الآخر موجزا ايجاز النصف الأول...

◉ صه! استمع! ثم انني أطلب شرطا: أن لا تقاطعني قط، والا لم أستطع أن أكمل. لي اذن جدة عجوز عشت معها منذ كنت بنية صغيرة بعد أن فقدت أبي وأمي في سن مبكرة جدا. وأغلب الظن أن جدتي كانت في الماضي غنية، لأنها تحب أن تتذكر أيامها الخوالي التي كانت خيرا من أيامها الآن. وقد علمتني اللغة الفرنسية، ثم سمت لي أستاذا، فلما بلغت من عمري السنة الخامسة عشرة (وأنا اليوم في السابعة عشرة) انتهت دراستي. وفي ذلك الحين انما ارتكبت حماقات. لن أقول لك ماذا فعلت. ولكن اعلم أن الأخطاء التي قارفتها لم تكن كبيرة. غير أن جدتي نادتني في ذات صباح وقالت لي انها بسبب عماها لا تستطيع أن تراقبني، ثم تناولت دبوسا شدتني به إلى ثوبها، وأعلنت لي عندئذ أننا سنظل نعيش على هذا النحو حياتنا كلها اذا لم يصبح سلوكي أقرب إلى العقل والحكمة ومعنى هذا أني أصبحت لا أستطيع أن أسير خطوة واحدة لأعمل وأقرأ وأتعلم. أصبح عليّ أن أمكث قرب جدتي دائما.

وفي ذات مرة أردت أن أستعمل المكر والحيلة، فرجوت تكلا أن تأخذ مكاني. ان تكلا خادمتنا وهي صماء. حلت تكلا محلى، ونامت جدتي على

مقعدها. وأسرعت أنا أمضى إلى صديقة لي... وانتهى الأمر نهاية سيئة فحين استيقظت جدتي، كنت ما أزال غائبة فطلبت شيئا لظنها أنني قربها، فأدركت تكلا ذلك، ولكنها لم تستطع أن تلبي رغبتها، وفكرت فيما عساها تفعل فانتهت إلى هذا القرار: انتزعت الدبوس وهربت...

توقفت ناستنكا عن الكلام وهي تنفجر ضاحكة فضحكت معها فسرعان ما كفت عن الضحك وقالت:

– لا تهزأ بجدتي. انني أضحك لأن الأمر كان سخيفا.. وما عساي أفعل وهي عمياء! ولكنني أحبها مع ذلك. ما أكثر ما وعظتي يومئذ بعد أن أمرت أن أظل قربها ومنعتني من أية حركة.

نسيت أن أقول لك اننا نملك بيتا، أعني أن جدتي تملك بيتا. هو بيت ليس له الا ثلاثة نوافذ على واجهته، وهو من خشب كله، طاعن في السن كجدتي، وفي أعلاه غرفة تحت سقف القرميد. وقد جاء مستأجر جديد يسكن تلك الغرفة.

قلت:

– اذن كان يسكنها قبل المستأجر الجديد مستأجر قديم.

أجابت:

– وكان يعرف كيف يصمت خيراً منك! حقا كان لا يكاد يحرك لسانه. أنه شيخ قصير أعجف أخرس أعمى أعرج، لذلك لم يقو على البقاء طويلا فمات. فجاءنا بعده بقليل مستأجر جديد (اننا لا نستطيع أن نعيش بغير مستأجر لأن معاش جدتي هو موردنا الوحيد). وشاءت المصادفة التي تشبه العمد أن يكون المستأجر الجديد شابا. ولم يكن هذا

المستأجر الشاب من مدينتنا، وانما وقد اليها لقضاء زمن. واذ لم يساوم فقد أجرته جدتي الغرفة فورا، ونادتني وسألتني: «قولي لي يا ناستنكا أهو شاب أم لا؟» فلم أشأ أن أكذب عليها فقلت: «لا يمكن القول أنه فتى ولكنه ليس بالكهل. فأمعنت جدتي تسألني: وهل هو حسن المنظر وسيم الطلعة؟ فقلت لها: نعم هو كذلك، لأنني لم أشأ أن اكذب ايضا. فصاحت جدتي عندئذ تقول: «آه يا للمصيبة يا للمصيبة!!... لقد سألتك هذا السؤال يا ناستنكا حتى لا تنظري اليه كثيرا. ويالهذا الزمان من زمان! مستأجر حسن المظهر ثم هو لا يدفع أجرا أكبر!... لم يكن الأمر كذلك في زمامنا!» أن جدتي تتحدث دائما عن «العهد الخالي» الجميل، فتقول فيما تقول: انها كانت يومئذ فتية، وان الشمس كانت يومئذ شابة، وان الشمس كانت أكثر دفئا. وكانت القشدة لا تفسد بسرعة كما تفسد في هذا الزمان. كان كل شيء حسنا في ذلك العهد الجميل! وسكتّ أنا وفكرت: «لماذا تسألني جدتي هل هو جميل وهل هو فتي؟». على أني ألقيت هذا السؤال على نفسي ببساطة دون أية فكرة مبيتة، واستمررت أعد الأبازيم، وأحيك الجوارب، ثم نسيت كل شيء.

وهذا هو المستأجر الجديد يجيء الينا في ذات صباح يذكرنا بأن ورق جدران غرفته يجب تغييره، فقالت لي جدتي عندئذ (وهي مكتار كما تعلم): «هيا أسرعي الى غرفتي يا ناستنكا فأتني بكيسي». فوثبت فورا وقد احمر وجهي لا أدري لماذا، ناسية نسيانا كاملا أنني مشدودة إلى ثوب جدتي بدبوس، فبدلا من أن انتزع الدبوس في رفق حتى لا يلاحظ المستأجر شيئا، وثبت مسرعة، فاذا بالمقعد وجدتي يتبعاني في رحلتي. فلما قدرت أن المستأجر قد عرف عني عندئذ كل شيء ازددت احمرارا، وتسمرت في مكاني لا أتحرك، وانفجرت باكية في نشيج. لقد شعرت في

تلك اللحظة بخجل رهيب وعار فظيع، وتمنيت لو أغور مئة متر تحت الأرض! صاحت جدتي تسألني: «لماذا وقفت؟» فازداد بكائي.. فأدرك المستأجر عندئذ اضطرابي، فحياني وخرج. ومنذ ذلك الحين أصبح يتملكني قلق قاتل كلما سمعت ضجة في الدهليز، فأقول لنفسي: «انه المستأجر»، وأسارع فأنزع الدبوس برفق وهدوء، ولكنه كان لا يجيء. وانقضى أسبوعان، وكلف المستأجر تكلا أن تقول لنا ان لديه كتبا فرنسية كثيرة شائقة جدا، وأن تسألنا هل تأذن لي جدتي أن أقرأ لها هذه الكتب لأسليها، ولكن جدتي سألت عن هذه الكتب أهي كتب فاضلة، وأضافت تقول لي: «إن لم تكن فاضلة فلن تستطيعي آن تقرئيها يا ناستنكا، والا علمتك الشر والرذيلة».

سألتها:

– لماذا يا جدتي؟ ما عسى أن تضمه هذه الكتب؟

– هي كتب تتحدث عن رجال يغوون البنات الفاضلات، اذ يعدونهن بالزواج، فيأخذوهن من أسرهن ثم يهجرون هاته الفتيات الشقيات ويتركونهن للقدر يعبث بهن على ما يشاء، فيهلكن عندئذ في حياة بائسة تعيسة. لقد قرأت كثيرا من تلك الكتب التي بلغ مؤلفوها من الحذق والبراعة في كتابتها أن المرء يقضي ليلته كلها يقرؤها ثم يقرؤها. هل سمعت يا ناستنكا؟ اياك أن تفتحي هذه الكتب! ما هي الكتب التي أرسلها هذا الشاب!

– هي روايات بقلم والتر سكوت يا جدتي!

– والتر سكوت؟ لا شك أن في الأمر شيئا. انظري يا ناستنكا.. هل ترين في هذه الكتب بطاقات صغيرة حلوة؟

– لا يا جدتي... ما من بطاقة...

– انظري تحت الغلاف! أن هؤلاء الأوغاد يضعونها في كثير من الأحيان تحت الغلاف...

– لا شيء تحت الغلاف أيضا يا جدتي...

– حسن اذن..

وشرعنا نقرأ والتر سكوت، واستطعنا في أقل من شهر أن نقرأ نصف الكتب التي أعارنا اياها جارنا، ثم أرسل الينا كتبا أخرى فقرأت بوشكين، فما هي الا فترة قصيرة حتى أصبحت لا أستغني عن القراءة، وبلغت من ذلك أني كففت تماما عن التساؤل: «كيف أستطيع أن أتزوج أميرا صينيا!» وفي ذات يوم التقيت بالمستأجر على السلم. كانت جدتي قد أرسلتني في أمر من الأمور، وقف الشاب فاحمر وجهي واحمر وجهه أيضا، ثم ابتسم وحياني وسألني عن أنباء جدتي وقال لي: «هل قرأت كتبي!» فأجبته: «نعم». فقال: «أيها أحببت؟». فقلت: «ايفانهويه[7] وبوشكين».

كذلك انتهى حديثي.

وبعد أسبوع التقيت به مرة أخرى، وكنت في هذه المرة قد شعرت بالحاجة إلى الخروج من أجل نفسي. كانت الساعة هي الثالثة، وكان المستأجر عائدا إلى المنزل. قال لي: «يومك سعيد». فأجبته: «يومك سعيد».

– أليس يضجرك كثيرا أن تلبثي مع جدتك طوال النهار؟

فاحمر وجهي من هذا السؤال احمرارا قويا، وشعرت بخجل شديد، وأحزنني أن أرى الغرباء يسألوني عن هذا الأمر، وأردت أن أنصرف دون

اجابة، ولكنني لم أقو على ذلك.

– اسمعي! ان لك قلبا طيبا نبيلا، فاعذريني إذا أنا قلت لك هذا الكلام! ولكنني أريد لك الخير أكثر من جدتك نفسها! أليس لك أية صديقه؟

فأجبته بأن لي صديقة هي ماشنكا. ولكنها سافرت الى بسكوف.

– هل تحبين أن تصحبيني إلى المسرح؟

– الى المسرح؟ وجدتي؟...

– تستطيعين أن تنصرفي.. بهدوء ورفق.. فما يشعر بخروجك أحد.

– لا، لا أريد أن أخدعها! إلى اللقاء!

– إلى اللقاء اذن!

كذلك أجاب دون أن يزيد شيئا.

ولكنه جاء الينا بعد العشاء، ولبث يتحدث مع جدتي مدة طويلة. وسألها هل هي تخرج أحيانا؟ وهل لها أصدقاء؟ ثم قال فجأة: «لقد استأجرت اليوم شرفة في الأوبرا. انهم يمثلون «حلاق اشبيلية[8]». وكان يجب أن يصحبني بعض الأصدقاء، غير أن مانعا طرأ في آخر لحظة، فأصبحت الشرفة خالصة لي وحدي.

صاحت جدتي:

– «حلاق اشبيلية»!... تلك التي كانوا يمثلونها في العهد الماضي الجميل!

قال:

– نعم هي نفسها!

ونظر اليّ. وكنت أنا قد فهمت كل شيء، فأخذ قلبي يخفق أملا ورجاء...

قالت جدتي:

– آه لقد غنيت بنفسي دور «روزين»[9] في عرض بيتنا ذات مرة... انني أعرف هذا الدور معرفة جيدة...

قال المستأجر:

– تعالوا اذن معي، والا ضاعت الأماكن سدى.

قالت الجدة:

– نعم هيا بنا! ولِمَ لا؟ أن ناستنكا لم تذهب يوما إلى المسرح. ما أجملها متعة يا رب!

وما لبثنا أن ارتدينا ملابسنا وخرجنا. كانت جدتي تحب الموسيقى كثيرا. وكانت عدا ذلك طيبة القلب جدا. فهي تحب أن تسرني. وما كان لنا أن نذهب الى المسرح وحدنا. لا أستطيع أن أصف لك الأثر الذي أحدثته في نفسي أوبرا «حلاق اشيلية». ولكن المستأجر ظل طوال تلك السهرة ينظر إليّ بعينين فيهما من الطيبة ويحدثني بكلام فيه من العذوبة ما جعلني أدرك فورا أنه قد أراد أن يمتحنني في الصباح حين عرض عليّ أن أخرج معه وحيدة. ما كان أشد فرحي! لقد رقدت على فراشي في تلك الليلة فخورة مفتونة. كان قلبي يخفق خفقانا شديدا، حتى لقد أصابتني حمي، وحلمت طول الليل بـ «حلاق اشبيلية». وقدرت عندئذ أن جارنا سيكثر اختلافه الينا وتردده علينا. ولكن ظني لم يصدق. لقد انقطع

عن زيارتنا انقطاعا يشبه أن يكون تاما. لعله أصبح لا يزورنا الا مرة واحدة في الشهر. وهو لا يزورنا هذه الزيارة أيضا الا ليدعونا إلى المسرح. ذهبنا إلى المسرح مرتين أخريين. ولاحظت أنه كان يشفق عليّ ويرأف بي ويرثي لحالي اذ يراني وحيدة مع جدتي دائما. ولكنني كنت أنا أفقد الهدوء يوما بعد يوم. وأصبح يستحيل عليّ أن أبقى ساكنة النفس مطمئنه البال، حتى لقد صرت أعجز عن القراءة، ولا أستطيع أن أعمل؛ وكنت أبكي في كثير من الأحيان! وسرعان مانحلت، وأوشكت أن أمرض. لقد انتهى موسم المسارح. وأصبحنا لا نرى جارنا البتة، فاذا صادفته مصادفة، وذلك يكون على السلم دائما، حياني صامتا برصانة وجد، كأنه لا يريد أن يكلمني، فأتسمر على الدرجة التي أكون عليها من السلم، بينما يكون هو قد خرج، وكنت أحمر عندئذ احمرارا شديدا، لأني كنت لا أراه الا ويصعد الدم إلى رأسي.

هأنذا أوشك أن أختم قصتي. منذ سنة تماما في شهر أيار (مايو) جاء المستأجر يكلم جدتي. كان قد سوّى جميع شؤونه وأعماله، فعليه أن يعود إلى موسكو. وسيمكث هنالك سنة. فلما سمعته يقول ذلك الكلام شحب لوني، وتهاويت على كرسي كالميتة. لم تلاحظ جدتي شيئا بطبيعة الحال، أما هو فقد خرج بعد أن حيانا مودعا.

ماذا كان عليّ أن أعمل؟ فكرت طويلا، طويلا... ثم عزمت أمري أخيرا... قلت لنفسي: ما دام مسافرا في الغد، فسوف اراه متى نامت جدتي... وذلك ما وقع. حزمت جميع أثوابي وملابسي في صرة، وصعدت اليه وأنا أقرب إلى الموت مني إلى الحياة. أحسب أني سلخت ساعة برمتها في صعود السلم، فحين فتحت عليه الباب فأبصرني أطلق صرخة. لا شك أنه ظنني شبحا من الاشباح. ذلك أني كنت لا أكاد أستطيع الوقوف على

ساقي. فلما رآني على هذه الحال أسرع يجيء بماء لينعشني به. كان قلبي يبلغ من شدة الخفقان أن صداعا ألم برأسي وأنني أصبحت لا أفهم ما يجري من حولي. وثبت إلى رشدي بعد قليل، فوضعت صرتي على السرير، وجلست غارقة في دموعي، دافنة رأسي في يديه. وسرعان ما فهم هو كل شيء. فها هو ذا يقف أمامي شاحب الوجه ينظر إليّ نظرة تبلغ من الحزن أن قلبي تفطر لها.

قال لي:

◉ ناستنكا! اسمعيني. لا أستطيع شيئا! انني فقير، وليس لي أي مركز، فكيف عسانا نعيش إذا أنا تزوجتك؟

تحدثنا طويلا، وفقدت صوابي آخر الأمر فقدانا تاما، فأعلنت له أنني لن أستطيع أن أعيش بعد الآن مع جدتي. قلت له انني سأهرب فلست أريد أن أبقى مشدودة إلى جدتي بدبوس، وانني سأتبعه إلى موسكو شاء أم أبى، فقد أصبحت لا أستطيع أن أستغني عنه. كان الخجل والحب والكبرياء، كان كل شيء في نفسي يتكلم في آن واحد. وتهالكت على السرير مرتعشة أشد الارتعاش. كنت أشعر بذعر من تصوري رفضه.

لبث صامتا بضع لحظات، ثم نهض واقترب مني، وتناول يدي، وقال لي منفعلا أشد الانفعال:

– عزيزتي الطيبة ناستنكا، أقسم لك أنني إذا استطعت يوما أن أتزوج، فلسوف تحققين أنت وحدك سعادتي. نعم انت وحدك... اسمعي ما سأقوله لك: أنا مسافر إلى موسكو، وسأقضي هنالك سنة تماما، وآمل أن أسوي أموري، فاذا عدت بعدئذ فوجدت أنك لم تنسيني، سعدنا معا، أقسم لك على ذلك. أما الآن فلست أستطيع ولا يحق لي أن أعدك بشيء. على أنني

أؤكد لك أننا اذا لم نحقق سعادتنا في السنة القادمة، فسنحققها في يوم من الايام حتما، ه ذا اذا لم تؤثري عليّ شخصا آخر بطبيعة الحال! ذلك أنني لا أستطيع ولا أجرؤ أن أربطك بعهد!

تلك كانت أقواله. وسافر في الغداة. اتفقنا على أن لا أحدث جدتي بشيء. فكذلك أراد. هذه هي قصتي أنهيت سردها لك تقريبا. وقد تصرمت السنة وعاد صاحبي إلى بطرسبرج وهو هنا منذ ثلاثة أيام، و...

صحت أسألها مستعجلا معرفة النهاية:

– وماذا؟

فأجابت ناستنكا وكأنها تجاهد نفسها...

– ما رأيته بعد! ولا تلقيت منه كلمة... لا شيء...

وصمتت وخفضت رأسها وانفجرت تنحب انتحابا قويا تمزق له قلبي.

لم أكن أتوقع هذه الخاتمة.

قلت بصوت وجل متردد:

– ناستنكا! لا تبكي! ناشدتك الله! لعله لم يصل بعد، ما يدريك؟

صاحت ناستنكا تقول:

– بل وصل. انه هنا. أعرف ذلك. ولقد وضعنا هذا الشرط في الليلة التي سبقت سفره حين تنزهنا هنا على رصيف النهر. خرجنا من البيت معا بعد حديثنا، وكانت الساعة العاشرة، وجلسنا على هذا المقعد وقد كففت عن البكاء. كنت سعيدة بالإصغاء إلى كلامه... كل السعادة... قال انه

سيأتي الينا متى عاد، فاذا كنت ما أزال أحبه كاشفنا جدتي بكل شيء. وقد وصل، فأنا أعرف ذلك، ولم يبلغني منه شيء بعد...

قالت ذلك وطفقت تبكي من جديد.

صحت أقول واثبا وقد تملكني غم شديد:

– رباه! ألا نستطيع أن نفعل شيئا لدفع هذا الكرب؟ قولي يا ناستنكا: ألا يمكنني أن أذهب اليه؟

فأجابتني وهي ترفع رأسها بسرعة وقوة:

– أهذا معقول؟

قلت وقد عدت إلى صوابي:

– طبعا لا! ولكنك تستطيعين أن تكتبي اليه رسالة.

فأجابت بلهجة قاطعة وهي تخفض رأسها من جديد متحاشية نظرتي:

– لا! هذا لا يمكن أن يكون.

فتابعت كلامي ملحاً:

– لماذا يا ناستنكا؟ ثقي بي... فلن أسيء نصحك. ان من الممكن أن يُسوىّ كل شيء. لقد خطوت الخطوة الأولى، فلماذا تحجمين الآن؟

– لا أستطيع! لا أستطيع! لا أريد أن أكرهه اكراها...

قاطعتها أقول مبتسما:

– يا عزيزتي الصغيرة ناستنكا! أنت مخطئة! أن من حقك أن تخاطبه، لأنه قطع لك عهداً، ثم انني أفهم من كل ما قصصته عليّ أنه

رجل مرهف العواطف رقيق المشاعر.

وتابعت أقول وأنا أزداد اقتناعا بمنطق براهيني:

– لقد كان سلو كه حسنا جدا: قطع لك على نفسه عهدا، وأعلن أنه لن يتزوج غيرك، وترك لك حرية رفضه إذا شئت... فبوسعك اذن أن تقومي بالخطوة الأولى، ذلك من حقك تماما ما دمت تمتازين عليه بقدرتك على أن تجعليه في حل من عهده...

– ولكن ما عساك تكتب؟

– أكتب ماذا؟

– الرسالة.

– أكتب هكذا: «السيد المحترم..»

– هل ضروري أن تكتب: «السيد المحترم؟»

– تماما... ثم انني أرى...

– طيب.. طيب.. وماذا تكتب بعد ذلك؟

– «السيد المحترم!.. معذرة إذا أنا...» لا.. لا داعي إلى أي اعتذار.. فالأمر مسوغ من تلقاء نفسه. اكتبي فقط ما يلي:

«أكتب اليك راجية أن تغفر لي نفاد صبري، فإن الأمل قد جعلني سعيدة سنة بكاملها. أفاكون مذنبة أذا أنا لم أطق احتمال الشك يوما واحدا؟ ترى هل تغيرت نياتك وقد عدت؟ ان رسالتي ستنبئك في هذه الحالة بأنني لا أدينك، فليس يُدان امرؤ لأنه لا يملك زمام قلبه. ذلك هو القدر!

«انك امرؤ رفيع العواطف، فلن تبتسم اذن حين تقرأ هذه الأسطر التي تدل على نفاد الصبر ولن ترميها إلى الأرض. تذكر أن فتاة بائسة هي التي تكتب هذه الأسطر. انني وحيدة وليس لي أحد يرشدني ويسدد خطاي ويسدي إليّ النصح. ولم أستطع أبدا أن أسيطر على قلبي، فسامحني اذا كان قد نبت شيء من الشك في هذا القلب. انك لا يمكن أن تريد اذلال تلك التي أحبتك ذلك الحب كله وما تزال تحبك، لا تريد اذلالها ولو بالخيال».

هتفت ناستنكا تقول وقد سطع الفرح بعينيها:

– نعم.. نعم.. ذلك ما كنت أفكر فيه. لقد وجدت لي مخرجا من شكوكي! ان الله نفسه قد أرسلك اليّ! أشكرك أجزل الشكر، وأعرب لك عن أعمق الامتنان.

– لماذا أرسلني الله اليك؟

كذلك أجبتها وقد أسعدني أن أتأمل وجهها الصغير الذي أشرق بشرة وبهجة.

قالت:

– من أجل هذا كله!

– آه يا ناستنكا! انني أنا الذي أشكر لك أن قد أتيح لي أن ألقاك، ولسوف تحيين دائما في ذكراي.

– كفى! كفى! استمع إليّ الآن! قلت لك اننا قد تواضعنا على هذا الشرط، وهو أن يبلغني عودته متى عاد برسالة يودعها إحدى صديقاتي المخلصات التي تجهل عنا كل شيء، فاذا لم يستطع أن يكتب لأن المرء لا

يقدر أن يقول كل شيء في رسالة، جاء إلى هذا المكان نفسه يوم وصوله ذاته في الساعة العاشرة. ولقد بلغني نبأ وصوله. ولكنني لم أتلق منه شيئا، ولست أستطيع أن أترك جدتي في الصباح، فانقل أنت هذه الرسالة إلى صديقتي غدا في ساعة مبكرة، فتتولى هي ارسالها اليه، فاذا جاء منه جواب، حملته إليّ بنفسك في مساء غد.

– ولكن الرسالة لا بد من كتابتها، فلن نستطيع أن نتلقى الجواب اذن الا بعد غد.

فأجابت تقول وقد اضطربت بعض الاضطراب:

– الرسالة... الرسالة.. ولكن...

ولم تتم كلامها بل أشاحت وجهها واحمرت حتى أصبحت بلون الورد، ثم اذا أنا أشعر برسالة توضع في يدي. لا شك أنها كُتبت وختمت منذ مدة؛ وبرقت في خيالي ذكرى حبيبة لطيفة:

– رو... زين

كذلك غنيت، ثم غنينا معا روزين، وأوشكت أن أعانقها في غمرة هذا الفرح الذي ملأ نفسي. وكانت قد ازدادت احمرارا. وهي تضحك الآن من خلال دموعها التي ترتعش على أهدابها الجميلة كأنها اللآلئ.

وقالت أخيرة بسرعة:

– كفى... كفى!.. الى اللقاء! اليك الرسالة! والك العنوان الذي سننقلها اليه! إلى اللقاء! إلى الغد!

وضغطت يدي ضغطة قوية، وحيتني مودعة بحركة من رأسها وانصرفت تشق طريقها نحو الجادة الصغرى كالسهم سرعة. لبثت في

مكاني زمنا طويلا أشيِّعها بنظراتي.

– إلى الغد!..

كذلك ترجعت هذه الكلمات في نفسي حين غابت عن بصري.

الليلة الثالثة

كان النهار حزينا ممطرا لا تتخلله فترات صحو، كما ستكون شيخوختي. ان أفكارا غريبة قد عذبت روحي وان مسائل مبهمة مضطربة قد هزت فكري، وأنا لا أقوى على حلها، لا ولا أرغب في حلها.

لن نلتقي اليوم. وحين افترقنا أمس كانت السحب تغطى السماء وكان الضباب ينتشر في الفضاء. قلت لها: ان الجو سيكون في الغد رديئا. فلم تجب بشيء. ذلك أن هذا النهار سيكون مشرقا بضوء الشمس في نظرها، فما من غيمة يمكن أن تعكر سعادتها. لقد قالت لي:

– اذا أمطرت فلن نلتقي لأنني سأمكث في بيتي.

ولكنني أمّلت أن لا تفطن إلى هطول المطر، وأن تأتي مع ذلك. وأمس كان لقاؤنا الثالث، كانت ليلتنا البيضاء الثالثة. لشد ما يتفتح الانسان ويزدهر ويزداد جمالا حين يملأ الفرح قلبه وحين تفيض نفسه بالسعادة!

وكأن القلوب تريد أن ينتشر بعضها في بعض، فترغب أن ترى من حولها البهجة والضحك! وما أشد سريان هذا الفرح بالعدوى!

كان في أقوال ناستنكا لي كثير من حنان وطيبة وحدب.. وكانت نفسها تفيض مداراة لي، فهي تلاطفني وتشجع قلبي، وما أروع الفتنة

الأخاذة في ذلك الدلال والغنج اللذين كانت سعادتها تضفيهما عليها؟ حتى لقد نسيت... فخطر ببالي في بعض اللحظات أن...

رب! كيف أمكن أن يدور في خلدي ذلك! كيف أمكن أن أكون أعمى هذه العماوة كلها، بينما لم يكن شيء لي أنا، وكان كل شيء للآخر. لم يكن حنانها عليّ ولم تكن ملاطفاتها إليّ ولم يكن حبها اياي، لم يكن هذا كله الا ثمرة فرحها بلقائها القريب معه، والا الرغبة في اشراكي في سعادتها. فلما رأت أنه لم يأت، وأننا انتظرنا عبثا، غدت قاتمة خجلة وجلة. لم تعد حركاتها ولا أقوالها منطلقة خفيفة فرحة كما كانت من قبل. والغريب أنها ضاعفت ملاطفاتها لي كأنها تريد على غير شعور منها أن تملأني بمخاوفها وبرغبتها. وفجأة بلغت صغيرتي ناستنكا من فرط الخجل والخشية والخوف أنها أدركت أخيرا فيما أعتقد أنني أحبها، وانني أشفق على حبي البائس. فكذلك نحن: نشعر بألم الآخرين شعورا أعمق حين نكون أشقياء معذبين.. ان عاطفتنا تشتد عندئذ وتقوى...

لقد جئت اليها طافح القلب. وقاسيت كثيرا من العناء في انتظار لحظة اللقاء. لم أكن أتنبأ بما سأشعر به حين ذاك، ولم أكن أوجس الخاتمة، وكانت هي مشرقة الوجه تنتظر جوابه. وكان الجواب أن يحضر هو نفسه، الانسان الذي تحبه. وصلت قبلي بساعة، فكانت في أول الأمر تضحك لكل شيء، لكل كلمة من كلماتي. وقد بدأت أتكلم ثم سكت فجأة.

قالت:

– هل تعلم لماذا أنا سعيدة هذه السعادة كلها برؤيتك؟ هل تعلم لماذا أحبك هذا الحب كله؟

قلت وقد اختلج قلبي:

– لماذا؟

– اني أحبك لأنك لم تقع في حبي. لو كان شخص آخر غيرك في مكانك لما تركني وشأني هادئة البال بل لعذبني عذابا شديدا ولسقط مريضا... انك طيب جدا.

قالت ذلك وضغطت يدي ضغطا بلغ من القوة أنني كدت أصرخ. وانفجرت ضاحكة. قالت بعد لحظات بصوت رصين:

– ولكنك صديقي، ارسلك الله إليّ. ما كان عسى أن تصير اليه حالي لولاك الآن؟ ألا ما أعظم اخلاصك وتنزهك عن الغرض! ألا ما أطهر عاطفتك وأصفاها وأنقاها! حين سأتزوج سنبقي صديقين، سنبقى كأخوين بل أكثر. وسأمحضك من الحب بقدر ما أمحضه هو تقريبا..

حزنت حزنا رهيا وأنا أسمع هذه الكلمات. ومع ذلك فإن شيئا يشبه أن يكون ضحكة داخلية قد تحرك في نفسي. قلت لها:

– أنت خائفة. انك تقدرين أن الآخر قد لا يأتي، أليس كذلك؟

أجابت:

– ما هذا الكلام الذي تقول؟ لو كنت أقل سعادة فلربما كنت أبكي من سوء ظنك هذا ومن ملاماتك هذه! على أنك قد أنبتّ في نفسي معاني سأفكر فيها في المستقبل، بل انني أستطيع أن أعترف لك منذ الآن

بأن فيما قلته شيئا من حق. انني أنتظر، وأحسب أنني مسرفة في الابتهاج والفرح. ولكن كفانا حديثا عن العواطف!

وسمعنا في هذه اللحظة وقع خطوات، وظهر لنا رجل في الظلام.

كان مقبلا علينا. ارتجفنا كلانا. وأوشكت هي أن تطلق صرخة. تركت يدها، وأردت أن أنصرف، ولكننا كنا قد أخطأنا الظن فانه لم يكن هو القادم.

قالت وهي تمد إليّ يدها من جديد:

– لماذا هذه الخشية؟ لماذا نبذت يدي؟ سوف نراه معا. اني أريد أن يرى كم يحب أحدنا الآخر.

صحت أقول:

– كم يحب أحدنا الآخر؟

وقلت في نفسي: «آه يا ناستنكا! ما أكثر الأشياء التي كشفت عنها في هذه الأقوال! ان هذا الحب يجمد القلوب ويشجي النفوس. ان يدك باردة ويدي تحترق كالجمر! ما أعماك يا ناستنكا!... ألا أن السعداء لا يطاقون ولا يحتملون! ولكنني لا أستطيع أن أزعل».

وطفح قلبي أخيرا وقلت:

– اسمعي يا ناستنكا! هل تعلمين كيف قضيت نهاري؟

– كيف قضيت نهارك؟ قل بسرعة... لماذا ظللت صامتا حتى الآن؟

– أولا: قمت بما كلفتي به يا ناستنكا. نقلت الرسالة إلى صديقتك ثم عدت إلى بيتي فرقدت...

قاطعتني ضاحكة:

– أهذا كل شيء؟

أجبتها وأنا أكظم انفعالي الذي فضحته دموع غبية ترقرقت في عيني:

– نعم هذا كل شيء تقريبا... واستيقظت قبل أزوف موعدنا بساعة، وكان يخيل إليّ أنني لم أنم. لا أدري ماذا حدث لي. لم يبق للزمان عندي وجود، بعد أن أصبح كل احساس فريد أعانيه وكل شعور جديد أكابده لا بد أن يبقى في نفسي إلى الأبد! لكأن الحياة كله قد توقفت. وتراءى لي حين استيقظت أنني اسمع منذ مدة طويلة أغنية رخيمة عذبة كأنها كانت منسية، وكأنها كانت تريد أن تنطلق من نفسي منذ الأبد...

قاطعتني ناستنكا تقول:

– رباه! ماذا دهاك؟ انني لا أفهم...

– أردت أن أطلعك على هذه العواطف الغريبة.

كذلك أجبتها بصوت شالك يختفي فيه أمل بعيد جدا.

فقالت وقد حزرت الماكرة الصغيرة ما أريد أن أقوله فورا:

– كفى! اسكت...

وسرعان ما أصبحت طلقة اللسان كثيرة الكلام فرحة النفس عابثة متخابثة. فتناولت ذراعي، وأخذت تضحك، ثم تضحك، وتسألني أن أضحك أيضا، وأصبحت كل كلمة من كلماتي الخجلى تثير فيها هذا

المرح الصاخب نفسه... وبدأت أشعر بشيء من الغضب. لقد كانت حينئذ فتاة مغناجا.

قالت:

– هل تعلم أنني مستاءة قليلا من أنك لم تتوله بحبي. ما أصعب فهم الرجل! ولكنك يا أيها السيد الصامد لا تستطيع الا أن تحمد لي بساطتي. فأنا أقول كل شيء، أية كانت السخافة التي تخطر ببالي.

قلت وأنا أسمع أصوات الناقوس البطيئة تترجع في برج المدينة:

– أعتقد أن الساعة الحادية عشرة تدق.

فصمتت فجأة، وأخذت تعدٌ دقات الساعة، وقالت أخيرا بصوت متردد خجلان:

– نعم هي الساعة الحادية عشرة.

ندمت على أنني أرعبتها واضطررتها إلى عد دقات الساعة، ولمت نفسي على روح الشر هذه التي دفعتني إلى ذلك. أشفقت عليها فأخذت أهدئها محاولا أن أعلل غياب ذلك الذي كانت تنتظره. وجدت براهين واستخلصت نتائج، وما من أحد يمكن أن يُخدع بأيسر مما كان يمكن أن تخدع به هي في تلك الساعة. ذلك أن جميع الناس في مثل هذه اللحظات يصغون فرحين إلى العزاء الممكن، بل إلى ظل عذرٍ يخطر بالبال.

وتابعت أقول:

– نعم ليس في هذا غرابة. ما كان يمكن أن يأتي! لقد ضللتني يا ناستنكا... لذلك أخطأت تقدير الزمان...انه لم يكد يستلم الرسالة.

فافرضي أنه لا يستطيع أن يجيء وأنه يريد أن يرد برسالة، ففي هذه الحالة لا يمكن أن تصل رسالته الا غدا. سأمضي أستلمها في ساعة مبكرة جدا من صباح الغد. فأنبئك بذلك على الفور. ثم أن هنالك ألف احتمال ممكن: فلعله لم يعد إلى البيت، فلم يستلم الرسالة. كل شيء يمكن أن يحدث.

أجابت:

– نعم نعم انني لم أفكر. كل شيء يمكن أن يحدث.

وكانت تكلم سريعا بصوت حزرت فيه فكرة مختلفة بعيدة. وأضافت تقول:

– اذن ستذهب في أبكر ساعة ثم تنبئني هل هنالك شيء. أنت تعرف عنواني.

قالت ذلك وكررت ذكر عنوانها ثم أصبحت دمثة لطيفة خجولة معي... وكانت تصغي إليّ بانتباه ولكن حين سألتها سؤالا على حين فجأة سكتت وأشاحت بوجهها، فلما نظرت في عينيها أدركت أن ما خطر ببالي صحيح... لقد كانت تبكي حقا.

– ما هذا؟ ألا انك لطفلة! لا تبكي، أرجوك!

فحاولت أن تبتسم، ولكن ذقنها كانت ترتجف وكان صدرها ينهد لاهثا.

قالت بعد دقيقة صمت:

– انني أفكر فيك. انك طيب القلب نبيل النفس. أيكون قلبي من حجر فما أتأثر من ذلك؟ هل تعلم فيم أفكر؟ لقد وازنت بينكما في ذهني.

لماذا ليس هو أنت؟ لماذا لا يشبهك؟ أنك خير منه، رغم أنني أحبه أكثر مما أحبك.

لم أجب بشيء وكان يبدو أنها تنتظر جوابي. قالت:

– لعلني لم أفهمه بعد فهما كافيا. انني لا أعرفه معرفة تامة. كنت أخشاه دائما، فقد كان شديد الجد، أشبه بالمتكبر، ولكنه يظهر بهذا المظهر، أما قلبه فأرق من قلبي.. انني أتذكر نظرته حين جئت اليه حاملةً صرتي.. انني أحترمه كثيرا. انه أعلى مني.

– لا يا ناستنكا! أنت تحبينه أكثر من أي شيء في العالم، حبينه أكثر كثيرا مما تحبين نفسك.

أجابت بسذاجة:

– نعم، ربما... ولكن اسمع! لن أتحدث عنه بل سأقول كلاما عاما... انني أفكر في هذا الأمر منذ زمن طويل: لماذا لا نكون جميعا كإخوة مع اخوة؟ لماذا يحتفظ دائما أفضلنا بسر في نفسه؟ لماذا هو يلزم الصمت؟ لماذا لا يقول احدنا فورا كل ما في قلبه حين يكون واثقا أن الآخر سيفهمه؟ أن جميع الناس يبدون أقسى كثيرا مما هم قساة في الواقع، ويتخيلون أنهم يخفضون قيمة عاطفتهم اذا هم عبروا عنها بسرعة مسرفة.

– آه يا ناستنكا! انك على حق! ولكن البواعث كثيرة. لقد شعرت أنا نفسي أن عليّ في هذه اللحظة أن أخرس طائفة كبيرة من العواطف.

أجابت بانفعال:

– لا.. لا.. أنت لا تشبه الآخرين.. لا أعرف كيف أقول لك ما أشعر به...

قالت ذلك ثم أضافت خجلة وهي ترمقني بنظرة مختلسة:

– انك الآن تضحي بنفسك في سبيلي! واغفر لي أن أخاطبك على هذا النحو... ولكنني فتاة بسيطة لم أر الناس الا قليلا، ولا أعرف دائما أن أعبر عما بنفسي كما يجب أن أعبر عنه. (قالت ذلك بصوت مرتعش تختفي وراءه عاطفة قوية وكانت تحاول أن تبتسم). ولكنني أريد أن أفصح لك عن كل امتناني وشكري .. انني أحس بكل ما تفعله. وأسأل الله أن يهب لك السعادة جزاء هذا النبل وهذه الشهامة... ان ما قصصته عليّ في ذلك اليوم عن الرجل الحالم لا يتناولك قط. أنت الآن أحسن حالا. لقد تغيرت فلم تبق ذلك الرجل الذي وصفته لي. إذا أحببت يوما فإنني أتمنى لك أن تتمتع بالسعادة الكبرى التي تستحقها، ولست أتمنى لها هي شيئا، لأنها ستكون سعيدة معك. أنا أعرف ذلك، فأنا امرأة وفي وسعك أن تصدق ما أقول.

فرغت من الكلام وصمتت وضغطت يدي ضغطا قويا، وبلغت أنا من شدة الانفعال أنني لم أستطع أن أجيب.

وانقضت لحظات...

قالت أخيرا وهي ترفع رأسها:

– لن يأتي اليوم فالوقت متأخر.

فقلت لها بصوت جازم ولهجة قاطعة:

– سيأتي غدا.

فقالت جذلى:

– نعم! أنا مقتنعة بذلك... إلى اللقاء! إلى الغد! وقد لا آتي إذا أمطرت السماء، ولكنني سأجيئ بعد غد، مهما يقع لي، فتعال حتما، فإنني أريد أن أراك لأتحدث معك أيضا.

فلما افترقنا مدّت إليّ يدها وتمتمت وهي تنظر في عيني:

– لأننا سنظل دائما معا، أليس كذلك؟

– آه يا ناستنكا! لو علمت كم أنا وحيد الآن.

حين دقت الساعة التاسعة لم أستطع أن أمكث في غرفتي، فارتديت ثيابي، وخرجت رغم سوء الجو، وذهبت إلى هناك أجلس على مقعدنا. وأردت أن أجتاز شارع بيتهم ولكنني خجلت. فرجعت دون أن أنظر إلى نوافذ البيت، رجعت إلى غرفتي وقد استبد بي كرب شديد لم أعرف مثله في حياتي قط. وكان الجو كالحا جهما رطبا، ولولا ذلك لخرجت أتنزه على شواطئ النهر طول الليل..

ولكن إلى الغد، إلى الغد، غدا ستقص عليّ كل شيء.

ومع ذلك لم تصل منه رسالة اليوم. ولكن أليس هذا في طبيعة الأمور. انهما الآن معا.

الليلة الرابعة

رباه يا لتلك النهاية التي انتهى اليها ذلك الأمر كله! جئت في الساعة التاسعة. كانت هناك. رايتها من بعيد. انها متكئة على افريز الجسر كما كانت متكئة عليه في اليوم الأول. ولم تسمع وقع خطواتي وأنا أقترب منها. ناديتها مجاهدا نفسي للتغلب على انفعالي.

– ناستنكا!

فالتفتت بسرعة وسألتني قائلة:

– هيه! هيه! قل.. أسرع.

فنظرت اليها مشدوها.

– أين الرسالة! أهي معك؟

كذلك رددت تقول مستندة على الافريز.

قلت أخيرا:

– لا! ليس معي أية رسالة. ألم يأت هو اذن؟

شحب لونها شحوبا رهيبا. ولبثت تنظر اليّ جامدة لا تتحرك زمنا طويلا. لقد حطمت آخر رجاء لها.

وتمتمت أخيرا تقول:

– طيب.. لا باس.. فليفعل ما يشاء. ما دام يهجرني هكذا...

وخفضت عينيها، ثم أرادت أن ترفع بصرها نحوي، ولكنها لم تستطع. جاهدت انفعالها بضع لحظات أخرى، ثم وضعت كوعيها على افريز رصيف النهر وأجهشت تبكي منتحبة.

قلت لها:

– هدئي روعك! هدئي نفسك! أرجوك.. أضرع اليك.

ولكنني لم أقو على الاستمرار في الكلام. وما كان عساي أن أقول لها؟ قالت من خلال دموعها:

– لا تحاول أن تعزيني وأن تواسيني. لا تحدثني عنه بعد الآن! لا تقل لي بعد هذه اللحظة أنه سيأتي وانه لم يهجرني بقسوة!... لماذا؟ لماذا؟ انني لم أكتب اليه شيئا في تلك الرسالة. ما كان لتلك الرسالة الشقية أن...

وعلا نحيبها فلم أستطع أن أسمع تتمة كلامها، وكان قلبي يتمزق وأنا أنظر اليها.

وعادت تقول من جديد:

– ما أقسى هذا! تلك قسوة فوق قدرة الانسان على احتمال القسوة. وأما من سطر؟ أما من كلمة؟ كان في وسعه أن يجيب بأنه في غير حاجة إليّ. كان في وسعه أن يصدني، ولكنه لم يفعل شيئا طوال هذه الايام الثلاثة. ما أسهل عليه أن يذل وأن يؤذي فتاة مسكينة عزلاء كل ذنبها أنها تحبه! آه كم قاسيت من آلام في هذه الأيام الأخيرة! يا رب يا

رب! يا رب.. لا أريد أن أتذكر أني جئت اليه وأقبلت عليه وأذللت نفسي أمامه وتضرعت باكية أسأله قليلا من حب... وماذا بعد؟

قالت ذلك ثم أردفت وهي تنظر إليّ وقد سطعت عيناها السوداوان:

– ولكن اسمع! ما ينبغي أن يكون الأمر هكذا! ذلك غير طبيعي! لا بد أن أحدنا قد أخطأ... لعله لم يتلق الرسالة... لعله يجهل كل شيء حتى الآن... ما رأيك؟ مستحيل أن يكون الأمر غير ذلك! اشرح لي، أرجوك... أنا لا أستطيع أن أفهم سلوكا يبلغ هذا المبلغ من القسوة... هل يعقل أن لا يكتب لي كلمة واحدة؟ فأين الشفقة بالبشر اذن؟ أيكون أحد قد قال له سوءا في حقي؟ (كذلك صاحت) ما رأيك؟

– ناستنكا! سأذهب اليه غدا موفداً منك.

– ثم ماذا؟

– سأسأله أن يقول لي كل شيء... وأحكي له...

– ثم ماذا؟.. ثم ماذا؟

– اكتبي له رسالة أخرى... لا تقولي لا. لا ترفضي. سوف أجبره على احترامك يا ناستنكا. وسوف نعلم كل شيء.. واذا..

– لا يا صديقي، لا! كفى! لن أكتب له كلمة واحدة... لن أكتب له سطرا واحدا... كفى! انني لا أعرفه... أصبحت لا أحبه.. سوف أنساه... و...

لم تتم جملتها.

قلت لها وأنا أجلسها على المقعد:

– هدئي نفسك، هدئي نفسك، اجلسي هنا.

– أنا هادئة. كفى! لا ضير... هي دموع ثم تجف... أتظن أنني سأنتحر؟ أتحسب أني سوف أرمي نفسي في الماء؟

كان قلبي طافحا. أردت أن أتكلم، ولكنني لم أقو على قول كلمة واحدة.

وتابعت تقول وهي تناول يدي:

– اسمع! لو كنت في مكانه أكنت تتصرف تصرفه؟ أكنت تنبذ الفتاة التي جاءت اليك من تلقاء نفسها؟ أكنت تصب احتقارك على قلبها الضعيف الغبي؟ أما كنت تحمي هذه المرأة؟ أما كنت تتذكر أنها وحيدة ليس لها من يرشدها ويسدد خطاها، ولا هي قادرة على مجاهدة حبها لك؟ وليس لها من ذنب... ليس لها من ذنب... ولم تصنع شيئا يمكن أن... آه! يا رب! يا رب!

صحت أخيرا أقول وقد أصبحت عاجزا عن السيطرة على انفعالي:

– ناستنكا! انك تمزقين نفسي! انك تحطمين قلبي! انك تقتليني يا ناستنكا! أصبحت لا أطيق أن أصمت، ولا بد لي أن أقول أخيرا كل ما يخنقني هنا في قلبي...

وكنت قد نهضت عن مكاني فتناولت يدي ونظرت إلى مدهوشة وسألتني:

– ما بك؟

قلت بصوت حاسم:

– اسمعيني يا ناستنكا! ان كل ما سأقوله لك الآن سخيف غبي لا سبيل إلى تحقيقه. أنا أعلم أن هذا لا يمكن أن يقع، ولكنني لا أستطيع أن أصمت فبإسم آلامك وما تقاسين من ألوان العذاب، أضرع اليك أن تغفري لي..

سألتني وقد انقطعت عن البكاء والتمع في عينيها الاستطلاع:

– ما الذي تريد أن تقوله لي؟

– هو أمر لا يتحقق... ولكنني أحبك... هأنذا قد قلت كل شيء (وحركت بدي بإشارة معبرة) فهل عليك بعد الآن أن تبوحي لي بشيء، أن تفضي إليّ بسر من أسرارك، وأن تصغي إلى ما سأقوله لك.

قاطعتني تقول:

– لم لا؟ أنا أعرف منذ زمان أنك تحبني، ولكن كان يخيل إليّ أنك تحبني هكذا.. حبا بسيطا.. آه يا رب! يا رب!

– كان الأمر بسيطا في البداية. أما الآن فأنا أشبه ناستنكا حين صعدت إلى صديقها حاملةً صرتها، بل شأني أسوأ الآن من شأن ناستنكا. فصاحبك لم يكن يحب أحدا حينذاك، أما أنت فتحبين.

– أصبحت لا أفهمك البتة. فيم هذه الكلمات؟ هذه أقوال لا داعي اليها. ولماذا تقولها على هذا النحو المباغت؟ يا رب! ما هذه الحماقات التي أنطق بها!... ولكنك...

اضطربت ناستنكا كل الاضطراب واحمرت احرارا شديدا وخفضت عينيها.

– ولكن ما حيلتي يا ناستنكا؟ أنا مذنب.. لقد أسأت استعمال الثقة التي محضتني اياها... لا بل لست أنا بالمذنب... انني أحس بذلك. قلبي يقول اني على حق. أنا لا يمكن أن أسيء اليك في شيء. كنت صديقك وما زلت. ألم أخن لك عهدا. انظري يا ناستنكا: انني أبكي أيضا. فلتنهمر دموعي. أنها لا تؤذي أحدا. انها ستجف يا ناستنكا.

قالت وهي تدفعني إلى المقعد:

– اجلس.. اجلس.. آه! يا رب..

– لا يا ناستنكا. لن أجلس. ما ينبغي لي أن أبقى هنا. ولن تريني بعد الآن. سأقول لك كل شيء ثم أنصرف. لو قد استطعت أن أسيطر على نفسي لما عرفت يوما أنني أحبك، ولكتمت عنك سري، ولما عذبتك الان بأنانيتي. كنت أنت البادئة بالكلام، فأنت المدنية اذن، ولا يمكنك أن تصديني...

قالت البنية المسكينة وهي تخفي اضطرابها ما وسعها ذلك:

– ولكنني لا أصدك، لا.. لا..

– أنت لا تطردينني. كلا. ولكنني كنت أود أن أهرب من تلقاء نفسي، على أنني سوف أنصرف بعد أن أقول لك كل شيء. انني لم أستطع أن أحتمل رؤية دموعك منذ برهة، وأن أطيق هذا اليأس الذي هويت اليه حين شعرت أنك محتقرة وحين أحسست أن حبك منبوذ. لقد شب في قلبي حب كبير يا ناستنكا، حب كبير جدا لك، وآلمني أن لا أستطيع شيئا. آه من هذا الحب!... وتمزق قلبي ولم أطق أن أسكت، فكان لا بد أن أتكلم يا ناستنكا.

– نعم.. نعم.. تكلم.. تكلم.. أرجوك أن تتكلم. قد يبدو لك هذا الرجاء غريبا.. ولكن تكلم وسأشرح لك بعدئذ كل شيء.

قالت ذلك بلهجة لا أملك أن أصفها.

– انك تشفقين عليّ يا ناستنكا. ان شفقتك وحدها هي التي تتكلم الآن يا ناستنكا. ما وقع فقد وقع. ولا عودة إلى الماضي! ها أنت ذي تعرفين الان كل شيء. ولكن اصغي إلى ايضا. حين كنت تبكين كنت أقدر – ولكن دعيني اعبر عن فكرتي – كنت أقدر انك.. كنت أحسب على نحو من الانحاء أنك أصبحت لا تحبينه، وعندئذ (وأنا منذ يومين اثنين لا افكر الا في هذا) كان يمكن أن أفعل كل شيء في سبيل أن تحبيني. فلقد قلت انت نفسك يا ناستنكا انك تحبيني يا ناستنكا! هأنذا قد أنهيت كلامي، ولم يبق عليّ الا ان اقول ما الذي سيحدث اذا احببتني فعلا. ذلك كل ما بقي على أن أقوله ولا شيء سواه. فاستمعي اليّ اذن يا صديقتي الصغيرة – وأنت صديقتي على كل حال: أنا رجل فقير بسيط لا قيمة له (وليس الأمر أمرَ هذا على كل حال، ولكنني لا أستطيع أن أخرس خجلي) غير أن في وسعي، لو قد أحببتني، أن أحبك حبا يبلغ من القوة أن هذا الحب ما كان ليبدو لك شاقًا متعبًا، حتى ولو ظللت تفكرين في الآخر. كل ما هنالك أنك كنت ستشعرين في كل لحظة بوجود قلب معترف بالجميل ممتلئ حرارة يخفق إلى جانب قلبك. آه يا ناستنكا! آه يا ناستنكا! ماذا صنعت بي؟

قالت ناستنكا وهي تنهض:

– لا تبك!.. لا أريد أن أرى دموعك...

ثم أضافت تقول وهي تجفف دموعها بمنديلها:

– تعال. تعال معي.. سأقول لك كلاما آخر.. لقد هجرني.. لقد نسيني.. ورغم أني ما زلت أحبه فإنني لا أستطيع أن أخفي ذلك. قل لي: لو أحببتك... آه يا صديقي، يا صديقي المسكين! ما أشد ما أذيتك في ذلك اليوم حين عبثت بعاطفتك وهنأتك على أنك لم تتوله بحبي! يا رب! كيف أمكن أن لا أتنبأ بهذا؟... والآن قررت أن أعترف لك بكل شيء..

– اسمعي يا ناستنكا. سأنصرف. انني أعذبك. هذا ضميرك يتألم منذ الآن من أنك لم تفهمي حبي. انني لا أريد أن أزيد حزنك حزنا... لا، أنا المذنب يا ناستنكا، إلى اللقاء.

– انتظر... اسمع... هل تستطيع أن تنتظر؟

– أنتظر ماذا؟

– انني أحبه، ولكن هذا الحب سينقضي، سيزول، بل انه ينقضي منذ الآن... أنا أحس ذلك... ومن يدري؟... فلعل هذا الحب ستنتهي في هذا اليوم نفسه، لأنني أكرهه ما دام قد احتقرني. أما أنت فقد بكيت هنا معي. ولو كنت في مكانه لما نبذتني، لأنك تحبني حبا صادقا، ولا كذلك هو... فانه لا يحبني... الخلاصة... انني أحبك... نعم أحبك كما تحبني.. سبق أن قلت لك ذلك... أنت تعلم هذا... أنت خير منه... أنت أنبل منه.. فإنه هو..

بلغ انفعال البنية المسكينة أنها لم تستطع أن تتابع كلامها، فألقت برأسها على كتفي، وأجهشت باكية. واسيتها، حاولت أن أهدئها، ولكن محاولاتي لم تنفع. كانت ما تزال تضغط يدي، وتقول من خلال النشيج: انتظر.. انتظر.. لقد انتهى الأمر. لا يذهبن بك الظن إلى أن دموعي

ناشئة عن... لا... فما هي الا من الضعف...انتظر لقد انتهى كل شيء... وهدأت أخيرا، وجففت دموعها وتابعنا طريقنا، وأردت أن أكلمها، ولكنها رجتني أن أصمت لحظة أخرى. صمتنا، فما هي الا برهة، حتى بذلت جهدا وأخذت تتكلم. قالت بصوت ضعيف مرتعش، ولكنه صوت يترجع فيه شيء طعن قلبي وأحدث في نفسي ألماً لذيذاً:

– اسمع! لا تحسب أنني خفيفة القلب متقلبة العاطفة! فأنا لا أستطيع أن أنسى بمثل هذه السرعة، وأن أخون بمثل هذه السهولة.. لقد أحببته سنة بكاملها.. ويمينا ما خنت عهده مرة ولو بالخيال! وقد احتقر هو هذه العاطفة فله ما يشاء، ولكنه جرحني وأذل قلبي فأصبحت لا أحبه.. لأنني لا أستطيع أن أرتبط الا برجل نبيل، برجل يفهمني، برجل شريف. هكذا خلقت. انه غير جدير بي، وما وقع فهو خير. فلعل آمالي كانت ستخيب حين أعرفه على حقيقته... ولعل حبي لم يكن الا خطأ من أخطاء الحواس ووهما من أوهام الخيال. وأغلب ظني أن اسراف جدتي في مراقبتي ومحاصرتي كان هو السبب الوحيد الذي حملني على أن آخذ هذه العاطفة مأخذ الجد. ولعل واجبي كان يقضي عليّ أن أحب رجلا آخر، رجلا آخر يشفق عليّ... وأريد أن أقول لك اذا كنت تشاء رغم حبي لذلك الرجل (حبي الماضي)... اذا كنت تعتقد أن عاطفتك تبلغ من القوة أنها تستطيع أن تنسيني الآخر، اذا كنت لا تريد أن تتركني لمصيري محرومة من الأمل محرومة من العزاء... اذا كنت تريد أن تحبني دائما كما تحبني الآن... فأنا أقسم لك أن امتناني، أن حبي، سيكون جديرة بحبك... هل ترفض يدي؟

فما أن سمعت هذا الكلام، حتى صحت أقول والنشيج يهزني هزة قوية:

– ناستنكا! ناستنكا! آه يا ناستنكا!

قالت:

– كفي! كفي! لقد قلت كل شيء. أليس كذلك؟ أنت الآن سعيد... اذن فاعلم أنني سعيدة أيضا... ولا داعي إلى كلمة واحدة أخرى. اشفق عليّ... تكلم في شيء آخر... أرجوك.

– نعم يا ناستنكا، نعم... أنا سعيد... هيا هيا... فلنتكلم في شيء آخر... فلنسرع إلى الكلام في شيء آخر... أنا مستعد...

ولكننا لم نجد أي موضوع آخر يدور عليه الحديث. كنا نضحك ونبكي ونقول كلاما لا تسلسل فيه، نسير تارة على الرصيف، ثم نعود أدراجنا مرة أخرى نجتاز الشارع، ثم نتوقف، ثم نرجع إلى النهر من جديد، كالأطفال...

قلت:

– أنا أعيش الآن وحيدة يا ناستنكا! أما غدا... أنت تعلمين أني فقير.. وأن مواردي كلها تقتصر على ألف ومائتي روبل في السنة... ولكن لا قيمة لهذا..

– حتما، ولجدتي معاش... فلن نكون في عسر قط.. سنضم جدتي الينا.

– طبعة سنضم الجدة الينا... وعندي ماتريونا...

– نعم ونحن عندنا تكلا.

– ان ماتريونا فتاة طيبة... ولكن فيها عيبا: انها يعوزها الخيال، ليس لها خيال البتة. هل تفهمين؟ ولكن لا ضير في هذا.

– طبعا. ستكونان كلتاهما معنا... ولكن تعال الينا منذ الغد.

– أجيء اليكم؟ أتمنى ذلك.. ولكن...

◉ بل تعال! تستأجر عندنا غرفة... أن لدينا شقة صغيرة مؤثثة فوق.. كانت تسكنها عجوز قصيرة سافرت منذ قليل. وأنا أعلم أن جدتي تؤثر أن يكون المستأجر الجديد فتي. وحين سألتها لماذا تؤثر ذلك أجابتني بقولها: «لقد طعنت في السن يا ناستنكا، ودلفت إلى الشيخوخة، ولكن لا يذهبن بك الظن أنني أريد أن أزوجك منذ الآن...». وأدركت أنا...

– ناستنكا!...

وانفجرنا نضحك كلانا.

– هيا! كفى! أين تسكن أنت؟ لقد نسيت.

– هناك، قرب جسر «... سكوي» في منزل بارانيكوف.

– أهو منزل كبير؟

– نعم هو منزل كبير.

– ها!.. نعم.. أنا أعرف.. انه منزل جميل.. ولكن اتركه وتعال الينا بأقصى سرعة.

– غداً يا ناستنكا غدا. انني ما زلت مديناً لصاحبة البيت ببعض المال.. ولكن لا قيمة لهذا.. سوف أتقاضى راتبي قريبا.

– اسمع، لعلني أستطيع أن أعطي دروساً؟ أتلقى دروساً في أول الأمر، ثم أعطي دروساً بعد ذلك.

– عظيم... وسأنال أنا مكافأة في القريب يا ناستنكا...

– اذن تعال غداً وستكون جاري.

– نعم وسنذهب إلى المسرح معاً، نسمع «حلاق اشبيلية»... سيمثلونها قريبا..

قالت ضاحكة:

– فكرة حسنة، أو قل سنذهب إلى المسرح نسمع شيئا آخر...

– نعم نسمع شيئا آخر... انك على حق... لم يخطر ببالي هذا... الأفضل أن نسمع شيئا آخر...

كنا ونحن نتكلم هكذا نسير كلانا سيرَنا في ضباب، لا نفهم ماذا يجرى لنا. اجتزنا أحياء مجهولة، وظللنا نمعن في السير نم نمعن في السير، نضحك ذلك الضحك نفسه، ونذرف تلك الدموع نفسها. وأرادت ناستنكا فجأة أن تعود إلى البيت، فرافقتها، ولكننا وجدنا نفسينا بعد ربع ساعة على رصيف النهر قرب المقعد... كانت تتنهد، وكانت تنبجس من عينيها دموع. شعرت بوجل، وتجمد قلبي، ولكنها سرعان ما ضغطت يدي بيدها، وجرتني من جديد لنمشي، لنثرثر، لنتكلم..

قالت:

– آن لنا أن ننصرف... لا شك أننا تأخرنا كثيراً... كفانا صبيانية.

– نعم يا ناستنكا! ولكنني لن أستطيع أن أنام، ولن أعود إلى بيتي..

– وأنا أيضا لن أستطيع أن أنام. ليس بي نعاس ولكن رافقني.

– طبعا.

– ذلك أنه لا بد للمرء أن يعود الى بيته.

– حتمًا.

– أتقطع لي عهدًا بذلك؟... ان على المرء أن يعود إلى بيته عاجلا أو آجلا..

قلت ضاحكا:

– لك عليّ هذا العهد.

– اذن هيا.

وسرنا. قلت:

– انظري إلى السماء يا ناستنكا! سيكون الجو في الغد جميلا.. ما أروع هذا القمر! ما أروع هذه السماء الزرقاء! انظري الى تلك الغمامة الصفراء! أنها سوف تغشى القمر، ولكن لا، أنها تمر قريبة منه. انظري! لماذا لا تنظرين..

لم تنظر ناستنكا إلى الغمامة بل لبثت صامتة، وكأنها مسمرة في مكانها. وما هي الا لحظة قصيرة حتى شدت نفسها إليّ وجِلة، وكانت يدها ترتعش في يدي. نظرت اليها... ازدادت التصاقا بي.

وفي تلك اللحظة مرّ شاب قربنا، وتوقف فجأة، وحدقّ الينا، وأقبل نحونا بضع خطوات أخرى. ارتجف قلبي... قلت أسأل ناستنكا بصوت خافت:

– من هذا يا ناستنكا؟

فتمتمت تقول وهي تزداد اقترابًا مني:

– انه هو...

أوشكت أن أسقط على الأرض...

صاح صوت خلفنا:

– ناستنكا! ناستنكا! أهذا أنت؟

وفي هذه اللحظة نفسها جاء الشاب الينا...

رباه! يا لها من صيحة! ما أشد ما ارتجفت ناستنكا! وانتزعت ناستنكا نفسها من بين ذراعيّ وهرعت اليه... نظرتُ اليها مصعوقًا، وما كادت تمد يدها اليه، ثم تعانقه، حتى اندفعت نحوي سريعة كالريح، كالبرق، ثم اذا هي، قبل أن أثوب إلى نفسي، تمسك رأسي بديها وتقبلني قبلةً قوية. ودون أن تقول كلمة واحدة، عادت إلى الآخر، فأمسكت ذراعه وسارت معه...

لبثت أتابعهما بنظري طويلا... وما هي الا برهة حتى أصبحت لا أراهما.

الصباح

انتهت لياليّ في ذلك الصباح. كان النهار حزينًا.. المطر يتساقط، ويلطم زجاج نافذتي كئيبًا كآبة الحداد. الظلام يخيم في غرفتي، وأنا أشكو من صداع في رأسي، وأعاني دواراً.

قالت لي ماتريونا:

– رسالة لك يا مولاي جاء بها ساعي البريد.

– رسالة؟ ممّن؟

كذلك صحت وأنا أثب من على كرسيي.

– لا أعرف يا مولاي. أنظر أنت، فترى بنفسك.

ففضضت الرسالة، انها منها:

«اصفح عني! أتوسل اليك راكعة أن تصفح عني! لقد خدعتك وكنت مخدوعة عن نفسي. كان ذلك حلما... لشد ما تألمت من أجلك اليوم! فاغفر لي، اغفر لي!...

«لا تتهمني! لقد قلتُ لك انني سأحبك. واني لأحبك الآن حقا. بل انني أحبك مزيدا من الحب. رباه! ليتني أستطيع أن أحبكما كليكما! لماذا لسبت أنت هو؟ لماذا ليس هو أنت؟

شقت هذه العبارة رأسي. «هذه أقوالك أنت يا ناستنكا تعاودني...».

«الله يعلم ماذا كنت أحب أن أفعل في سبيلك! أنني أحس كم تتألم. لقد أذللتُ عاطفتك ولكنك لا تجهل أن المحب ينسى الاساءة. وأنت تحب.

«وإني لأشعر نحو حبك هذا بأعمق الامتنان، وسيظل منقوشًا في ذاكرتي حلما من أجمل الأحلام، يتذكره المرء بعد اليقظة زمنا طويلا. سأذكر دائما تلك اللحظة التي فتحت لي فيها قلبك، كما يفتح الأخ لأخته قلبه، ثم قبلت قلبي الجريح لتحميه وتداويه وتشفيه... فاذا غفرت لي، فان ذكراك ستعيش في نفسي تجمّلها عاطفة الامتنان الأبدي هذه التي لن تزول يوما.. سأبقى وفية لهذه العاطفة. لا أخون قلبي قط. فانه ثابت لا يتغير. وأنت تعلم بأية سرعة رجع هذا القلب إلى ذلك الذي امتلكه إلى الأبد.

«سوف نلتقي في المستقبل. ستجيئ الينا، ولن تهجرنا. ستظل صديقنا دائما. ستظل أخي، فاذا رأيتني، فسوف تمد إليّ يدك، أليس كذلك؟ نعم سوف تناولني يدك لأنك قد غفرت لي، ولست أشك في ذلك. إنك تحبني كما كنت تحبني قبل الآن. آه! أحبني! ولا تتركني! لأنني ما زلت أحبك كثيرا في هذه اللحظة وسأكون جديرة بعاطفتك. سأكون خليقة بها يا صديقي العزيز. لقد حددنا الأسبوع المقبل موعدًا لزواجنا. لقد عاد إليّ ممتلئا حبا ولم ينسني قط...

«لا تزعل اذا أنا حدثتك عنه، سنجيئ اليك كلانا وسوف تحبه..

«اغفر لي وتذكرني وأحبّ عزيزتك:

ناستنكا

قرأت الرسالة مرارا وانبجست من عيني دموع. وأفلتت الرسالة من يدي أخيرة فأغمضت عيني.

– مولاي! مولاي!

كذلك قالت ماتريونا.

فسألتها:

– ماذا يا عجوز؟

قالت:

– انظر! لقد نزعت نسيج العنكبوت · تستطيع الآن أن تتزوج، تستطيع أن تدعو أصدقاءك، فالبيت نظيف.

نظرتُ إلى ماتريونا. انها ما تزال عجوزة قصيرة، شابة، نشيطة. ولكن نظرتها بدت لي ميتة على حين فجأة، ورأيت في جبينها غضونا... وتراءت إليّ الغرفة كلها عجوزا هرمة مثلها... الجدران والأرض حائلة ألوانها. أنسجة العنكبوت تكاثرت. ونظرتُ من خلال النافذة فبدا لي المنزل المقابل (لا أدري لماذا) قد دلف إلى الشيخوخة وحال لونه هو أيضا، وتقشرت أعمدته واسودت أطنافه، وتشققت، وصارت جدرانه ضاربة إلى احمرار، بعد أن كانت صفراء قاتمة...

فأما أن شعاعاً من شمس كان قد شق الغيوم لحظةً ثم عاد يختبئ تحت السحب المثقلة بالمطر، فاذا كل شيء يرتد مظلمة قاتماً في نظري. واما أنني أدركت في طرفة عين آفاق مستقبلي الحزين فرأيت نفسي على نحو ما أنا الآن بعد انقضاء خمسة عشر عاما على ذلك العهد، وقد شخت

في هذه الغرفة نفسها، على هذه العزلة نفسها، مع ماتريونا هذه نفسها التي لم تجعلها هذه السنون كلها أكثر رهافة.

وقد قلت لنفسي يومئذ: كفاني يا ناستنكا! لا أريد أن أنكأ جرحي بالذكرى. لا لن أحمل غيومًا قاتمة إلى سعادتك المضيئة الساجية، لن أوقظ في قلبك الحسرات بملامات مرة، لا ولن أثير فيه ظلًا خفيًا من عذاب الضمير. لن أضطره أن يخفق حزينًا في لحظات سعادتك وهناءتك.. لا لن أجعد الزهرات الحلوة التي ستضيفينها إلى ضفائرك السود يوم تجيئين معه إلى الهيكل للزفاف. لا لن أفعل هذا أبدا! ألا فلتظل سماؤك مضيئة. ألا فلتظل بسمتك مشرقة مطمئنة، وبوركت يا من وهبت لحظةً من هناءة وسعادة لقلبي الممتن الذي يعيش في وحشة العزلة!

«لحظة بكاملها من سعادة... رباه هل تحتاج حياة انسان الى أكثر من هذا؟».

هوامش

[1←]

شارع نفسكي، وحديقة الصيف، والأرصفة: أماكن ثلاثة للتنزه في بطرسبرج.

[2←]

«قناة فونتانكا» تجتاز وسط المدينة.

[3←]

«بألوان امبراطورية السماء»: كان اللون الأصفر هو اللون الرسمي للصين.

[4←]

جزر كامني وابتكارسكي وبترهوف: أماكن اصطياف قريبة من بطرسبرج، يصطاف فيها الأغنياء، أما بارجولوفو، فهي على مسافة خمسة عشر كيلو متر من المدينة، في الطريق المؤدي إلى فنلنده.

[5←]

«آلهة الأحلام»، يصفها دوستويفسكي هنا بالألفاظ التي يصفها بها الشاعر الرومانسي فاسيلي جوكوفسكي (١٧٨٣ – ١٨٥٢).

[6←]

يعدد دوستويفسكي هنا سلسلة من الموضوعات الرومانسية: «ارنست تيودور آميري هوفمان» (١٧٧٦ - ١٨٢٢): أحد كبار الشعراء الرومانسيين الألمان؛ « ليلة سان بارتلمي» تمثل مذبحة البروتستانت في باريز في ٢٤ آب (اغسطس) ١٥٧٢ ، وقد صورها الشاعر بروسبر ميرمية في «وقائع عهد شارع التاسع؛ «ديان فرنون» : بطلة رواية والتر سكوت التي عنوانها: «روب روي»؛ الاستيلاء على قازان من قبل حنا الرابع سنة ١٥٥٢ ؛ «كلير موفبراي»: إحدى شخصيات والتر سكوت في روايته «امواه سان رومان»؛ «ايفى دينز»؛ احدى شخصيات والتر سكوت أيضا في «أرض ميد لوثيان»؛ «مجمع الأحبار» الذي أمر بإحراق جان هوس سنة ١٤١٥ ؛ مشهد يقظة الأموات في أوبرا «روبير الشيطان» من تأليف مايربير (١٨٣٠): قصيدة جوته «مينا» ترجمها إلى الروسية الشاعر جوكوفسكي؛ «برندا» قصيدة رومانسية للشاعر الأعمى ايفان كوزلوف (١٧٧٩ – ١٨٥٦)؛ الصالون الأدبي للكونتيسة ألكسندرين فورونتزوفا-داشكوفا (١٨١٨ - ١٨٥٦)؛ «دانتون» أحد كبار رجال الثورة الفرنسية؛ « كليوباتره وغرامها» موضوع قصيدة بوشكين التي عنوانها : «ليالي مصر»؛ «البيت الصغير في كولومنا» : من أعمال بوشكين ايضا، حيث يصف الشاعر أناساً فقراء الحال يعيشون في ضاحية من ضواحي سان بطرسبرج.

[7←]

«ايفانهويه»، الرواية الشهيرة التي كتبها والتر سكوت، وقد ترجمت إلى الروسية مراراً.

[8←]

«حلاق اشبيليه»، (١٨١٦): لقد مثلت اوبرا روسيبني هذه كثيراً في روسيا.

[9←]

«روزين»: اشارة إلى مشهد من حلاق اشبيليه، وفي ذلك المشهد تتولى روزين نقل رسالة إلى فيجارو من وراء ظهر ولي أمرها.

الفـــهـــرس

الليلة الأولى
الليلة الثانية
قصة ناستنكا
الليلة الثالثة
الليلة الرابعة
الصباح